

اقرأ

عباس محمود العقاد

عُبَيْرِيَّةُ الْإِمَامِ



دار المعارف بمصر

S
2
A

عِبْقَرِيَّةُ الْإِمَامِ

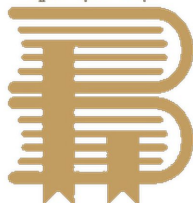
عباس محمود العقاد

عُبْقَرِيَّةُ الْإِسْلَامِ

١١٣ [اقرأ]

دار المعارف بمصر

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطہ تبدیل < mktba.net

اقرأ ١١٣ - الطبعة الثالثة

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.ع.م.

صفاته

المشهور عن علي كرم الله وجهه أنه كان أول هاشمي من أبوين هاشميين . فاجتمعت له خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملاحظها في كثير من أعلامها المقدمين ، وهي فح جملتها النبل والأيد والشجاعة والمروءة والذكاء ، عدا المأثور في سماتها الجسدية التي تلاقت أو تقاربت في عدة من أوائك الأعلام

فهو ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف وقيل إن اسمه الذي اختارته له أمه حيدرة باسم أبيها أسد ، والحيدرة هو الأسد . ثم غيره أبوه فسماه علياً وبه عرف واشتهر بعد ذلك

وكان علي أصغر أبناء أبويه ، وأكبر منه جعفر وعقيل وطالب ، وبين كل منهم وأخيه عشر سنين قيل إن عقيلاً كان أحب هؤلاء الإخوة إلى أبيه ، فلما أصاب القحط قریشاً وأهاب رسول الله عليه السلام بعميه حمزة والعباس أن يحملوا ثقل أبي طالب في تلك الأزمة جاءوه وسألوه

أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم ، فقال : دعوا لي عقيلًا
 وخذوا من شتم . فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفرًا وأخذ
 النبي عليه السلام علياً كما هو مشهور . فعوضه إيثار النبي
 بالحب عن إيثار أبيه ، ولكنه عرف هذا الإيثار في طفولته
 الأولى فكان سابقة باقية الأثر في نفسه على ما يبدو من أطوار
 حياته التالية ، وجاءت لهذه السابقة لواحقها الكثيرة على
 توقع واستعداد فتعود أن يفوته الحق والتفضيل وهو يدرج في
 صباه

وربما صح من أوصاف على في طفولته أنه كان طفلاً مبكر
 النماء سابقاً لأنداده في الفهم والقدرة ، لأنه أدرك في السادسة أو
 السابعة من عمره شيئاً من الدعوة النبوية التي يدق فهمها والتنبه
 لها على من كان في مثل هذه السن الباكرة . فكانت له مزايا
 التبكير في النماء كما كانت له أعباؤه ومتاعبه التي تلازم أكثر
 المبكرين ، ولا سيما المولودين منهم في شيخوخة الآباء

ونشأ رضى الله عنه رجلاً مكيين البنیان في الشباب والكهولة ،
 حافظاً لتكوينه المكيين حتى ناهز الستين
 قال واصفوه وهو في تمام الرجولة إنه كان رضى الله عنه
 ربعة أميل إلى القصر ، آدم — أى أسمر — شديد الأدمة ،
 أصلع مبيض الرأس واللحية طويلها ، ثقیل العينين في دمع
 وسعة ، حسن الوجه واضح البشاشة ؛ أغيد كأنما عنقه إبريق

فضة ، عريض المنكبين لهما مشاش^(١) كمشاش السبع الضاري لا يتبين عضده من ساعده قد أدجت إدماجاً ، وكان أبجر - أى كبير البطن - يميل إلى السمنة فى غير إفراط ، ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها ، ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها ، شثن الكفين ، يتكفاً فى مشيته على نحو يقارب مشية النبى ، ويقدم فى الحرب فيقدم مهرولا لا يلوى على شىء

وتدل أخباره - كما تدل صفاته - على قوة جسدية بالغة فى المكانة والصلابة على العوارض والآفات . فرمما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل ، ويمسك بذراع الرجل فكأنه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس ، واشتهر عنه أنه لم يصارع أحداً إلا صرعه ، ولم يبارز أحداً إلا قتله ، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه رجال ، ويحمل الباب الكبير يعي بقلبه الأشداء ، ويصيح الصيحة فتتخلع لها قلوب الشجعان

ومن مكانة تركيبه رضى الله عنه أنه كان لا يبالى الحر والبرد ، ولا يحفل الطوارئ الجوية فى صيف ولا شتاء ، فكان يلبس ثياب الصيف فى الشتاء وثياب الشتاء فى الصيف ، وسئل فى ذلك فقال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى وأنا أرمد العين يوم خيبر فقلت : يا رسول الله . إني أرمد العين .

(١) المشاش: رأس العظم .

فقال : اللهم أذهب عنه الحر والبرد ، فما وجدت حرّاً ولا برداً منذ يومئذ . . . »

ولا يفهم من هذا أنه رضوان الله عليه كان معدوم الحس بالحر والبرد بالغاً ما بلغت بهما القساوة والإيذاء. فقد كان يبرّد للبرد إذا اشتد ولم يتخذ له عدة من دثار يقيه . قال هرون بن عنترة عن أبيه : دخلت على عليّ بالخوزنق وهو فصل شتاء وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه . فقلت : يا أمير المؤمنين . إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً وأنت تفعل هذا بنفسك فقال : والله ما أرزأكم شيئاً ، وما هي إلا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة

وكانت شجاعته من الشجاعات النادرة التي يشرف بها من يصيب بها ومن يصاب ، ويزيدها تشريفاً أنها ازدانت بأجمل الصفات التي تزين شجاعة الشجعان الأقوياء . فلا يعرف الناس حلية للشجاعة أجمل من تلك الصفات التي طبع عليها على غير كلفة ولا مجاهدة رأى . وهي التورع عن البغي ، والمروءة مع الخصم قوياً أو ضعيفاً على السواء ، وسلامة الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال

فمن تورعه عن البغي ، مع قوته البالغة وشجاعته النادرة ، أنه لم يبدأ أحداً قط بقتال وله مندوحة عنه ، وكان يقول لابنه الحسن : « لا تدعون إلى مبارزة . فإن دعيت إليها فأجب .

فإن الداعى إليها باغ والباغى مصروع »

وعلم أن جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه ، وقيل
له إنهم خارجون عليك فبادرهم قبل أن يبادروك ، فقال :
« لا أقاتلهم حتى يقاتلوني . وسيفعلون ! »

وكذلك فعل قبل وقعة الجمل ، وقبل وقعة صفين ، وقبل
كل وقعة صغرت أو كبرت ووضح فيها عداء العدو أو غمض :
يدعوهم إلى السلم وينهى رجاله عن المبادأة بالشر ، فما رفع يده
بالسيف قط إلا وقد بسطها قبل ذلك للسلام

* * *

وعلى ما كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللدد فى العداء
لم يكن ينازلهم ولا يأخذ من ثاراته وثارات أصحابه عندهم إلا بمقدار
ما استحقوه فى موقف الساعة ؛ فاتفق فى يوم صفين أن يخرج
من أصحاب معاوية رجل يسمى كريس بن الصباح الحميرى فصاح
بين الصفين : من يبارز ؟ فخرج إليه رجل من أصحاب على
فقتله ووقف عليه ينادى : من يبارز ؟ فخرج إليه آخر فقتله
وألقاه على الأول ، ثم نادى : من يبارز ؟ فخرج إليه الثالث
فصنع به صنيعه بصاحبيه ، ثم نادى رابعة : من يبارز ؟ فأحجم
الناس ورجع من كان فى الصف الأول إلى الصف الذى يايه ،
وخاف على أن يشيع الرعب بين صفوفه فخرج إلى ذلك الرجل
المدل بشجاعته وبأسه فصصره ثم نادى نداءه حتى أتم ثلاثة

صنع بهم صنيعه بأصحابه ، ثم قال مسمعا الصفوف : يا أيها الناس . إن الله عز وجل يقول : الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ، ولو لم تبدأونا ما بدأناكم . . . ثم رجع إلى مكانه

أما مروءته في هذا الباب فكانت أندر بين ذوى المروءة من شجاعته بين الشجعان . فأبى على جنده وهم ناقمون أن يقتلوا مدبراً أو يجهزوا على جريح أو يكشفوا ستراً أو يأخذوا مالا . وصلى في وقعة الحمل على القتلى من أصحابه ومن أعدائه على السواء ، وظفر بعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وهم ألد أعدائه والمؤلّيين عليه فعفا عنهم ولم يتعقبهم بسوء ، وظفر بعمر بن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذى عدة فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سوائته اتقاء لضربته . وحال جند معاوية بينه وبين الماء في معركة صفين وهم يقولون له : ولا قطرة حتى تموت عطشاً . . فلما حمل عليهم وأجلاهم عنه سوغ لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده ، وزار السيدة عائشة بعد وقعة الحمل فصاحت به صفيّة أم طلحة الطلحات : أيتّم الله منك أولادك كما أيتّم أولادى . فلم يرد عليها شيئاً ، ثم خرج فأعادت عليه ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها . قال رجل أغضبه مقالها : يا أمير المؤمنين . أتسكت عن هذه المرأة وهى تقول ما تسمع : فأنهره وهو يقول : ويحك ؟ إنا أمرنا أن

نكف عن النساء وهن مشركات أفلا نكف عنهن وهن مسلمات؟
 وإنه لنى طريقه إذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من
 عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة . ثم ودع السيدة عائشة أكرم
 وداع ، وسار فى ركابها أميالا وأرسل معها من يخدمها ويحف
 بها . قيل إنه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس
 غممن بالعمائم وقلدهن السيوف . فلما كانت ببعض الطريق
 ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأففت وقالت : هتك سترى
 برجاله وجنده الذين وكلهم بى . . . فلما وصلت إلى المدينة ألقى
 النساء عماثمن وقلن لها : إنما نحن نسوة

وكانت هذه المروعة سنته مع خصومه ، من استحق منهم
 الكرامة ومن لم يستحقها ، ومن كان فى حرمة عائشة رضى الله
 عنها ومن لم تكن له قط حرمة ، وهى أندر مروعة عرفت من
 مقاتل فى وغر القتال

وتعدلها فى النبيل والندرة سلامة صدره من الضغن على أعدى
 الناس له وأضرهم به وأشهرهم بالضغن عليه . فنهى أهله وصحبه أن
 يمشلوا بقاتله وأن يقتلوا أحداً غيره ، ورثى طلحة الذى خلع
 بيعته وجمع الجموع لحربه رثاء محزون يفيض كلامه بالألم والمودة
 وأوصى أتباعه ألا يقاتلوا الخوارج الذين شقوا صفوفه وأفسدوا
 عليه أمره وكانوا شرّاً عليه من معاوية وجنده ، لأنه رآهم مخلصين
 وإن كانوا مخطئين وعلى خطئهم مصرين

* * *

وتقترن بالشجاعة — ولا سيما شجاعة الفرسان المقاتلين بأيديهم — صفة لازمة لها متممة لعملها قلما تنفصل عنها ، وكأنها والشجاعة أشبه شيء بالنضح للماء أو بالإشعاع للنور . فلا تكون شجاعة الفروسية إلا كانت معها تلك الصفة التي نشير إليها ، وهي صفة « الثقة » أو « الاعتزاز » أو الادراع بالهبة والتهويل على الخصوم ولا سيما في مواقف النزال

أما هذا الاعتزاز الذي نشير إليه ، أو هذه الثقة التي تظهر لنا في صورة الاعتزاز ، فهي جزء من شجاعة الفارس المقاتل لا يستغنى عنه ولا يزال متصلاً بعمله في مواجهة خصومه ، وهو عرض للقوة يساعد الفارس في إرهاب عدوه وإضعاف عزيمته من يتصدى لحربه . مثله هنا كمثل العروض التي تعتمد إليها الجيوش لإعلان بأسها وتخويف الأعداء من الاستخفاف بها والمجوم عليها . فهو كالشجاعة أداة ضرورية من أدوات القتال لا تنفصل عنها ، وليس كل ما فيها ضرباً من الخيلاء يرضى به الشجاع غروره ويثبه به في غير حاجة إلى التيه

ولهذا تسمح الناس الفخر العسكري من قديم الزمن وعهده وتحدثوا به وتناقضوه . فسمحوا للفارس — بل لعلهم أوجبوا عليه — أن يروع خصمه بالفخر المرعب إذ يتقدم لنزاله ، وأن يلاقيه وهو ينشد الأشعار في ذكر وقعاته والتهويل بضربات والإشادة

بغزواته ، وعلموا أنهم - وقد احتاجوا إلى شجاعته - محتاجون كذلك إلى فخره وحماسته وإيقاع الرعب في جنان قرنه . فشاعت قصائد الفخر والحماسة كما شاعت قصائد الحب والمناجاة ، وهي أحب القصائد إلى القلوب

وكانت هذه الصفة من صفات على رضى الله عنه ، يفهمها من يريد أن يفهم ولا يضيق صدره بفضله ، وينكرها من ينفس عليه فيسميها الزهو أو يسميها الجفوة والخلاء . قال له قيس بن سعد بعد عزله من ولاية مصر : إنك والله ما علمت لتنظر الخلاء . . . ومرو الزبير بن العوام مع رسول الله في بني غنم ، فرأى رسول الله علياً على مقربة منه فضحك له وضحك على يحييه . فقال الزبير : لا يدع ابن أبى طالب زهو . قال رسول الله : إنه ليس به زهو . ولتقاتلته وأنت له ظالم

وقد كان مدار هذا الخلق في ابن أبى طالب على ثقة أصيلة فيه لم تفارقه منذ حبا ودرج ، وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال . فما منعه الطفولة الباكرة يوماً أن يعلم أنه شيء في هذه الدنيا وأنه قوة لها جوار يركن إليه المستجير . ولقد كان في العاشرة أو نحوها يوم أحاط القروم القرشيون بالنبي عليه السلام يندرونه وينكرونه وهو يقلب عينيه في وجوههم ويسأل عن النصير ولا نصير . . . لو كان بعلى أن يرتاع في مقام نجدة أو مقام عزيمة لارتاع يومئذ بين أولئك الشيوخ الذين رفعهم الوجاهة ورفعتهم آداب

القبيلة البدوية إلى مقام الخشية والخشوع . ولكنه كان علياً في تلك السن الباكرة كما كان علياً وهو في الخمسين أو الستين . فما تردد وهم صامتون مستهزئون أن يصبح صبيحة الواثق الغضوب . أنا نصيرك . . . فضحكوا منه ضحك الجهل والاستكبار ، وعلم القدر وحده في تلك اللحظة أن تأييد ذلك الغلام أعظم وأقوم من حرب أولئك القروم

على هذا هو الذي نام في فراش النبي ليلة الهجرة وقد علم ما تأتمر به مكة كلها من قتل الراقد على ذلك الفراش وعلى هذا هو الذي تصدى لعمر بن ود مرة بعد مرة والنبي يجلسه ويحذره العاقبة التي حذرهما فرسان العرب من غير تحذير : يقول النبي : اجلس . إنه عمرو . فيقول : وإن كان عمراً . . . كأنه لا يعرف من يخاف ولا يعرف كيف يخاف ، ولا يعرف إلا الشجاعة التي هو ممتلئ بها واثق فيها في غير كلفة ولا اكتراث

وتمكنك هذه الثقة فيه لطول مراس الفروسية التي هي كما أسلفنا جزء منها وأداة من أدواتها ، وزادها تمكيناً حسد الحاسدين ولحاجة المنكرين ، وكلاهما خليق أن يعتصم المرء منه بثقة لا تنخذل ، وأنفة لا تلين . فمن شواهد هذه الثقة بنفسه أنه حملها من ميدان الشجاعة إلى ميدان العلم ورأى حين كان يقول : « أسألوني قبل أن تفقدوني ، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني في

شئاً فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة
إلا أنبأتكم بناعتها وقائدها وسائقها ، ومناخ ركابها ومحط رحالها
ومن شواهدا أنه كان يقول — والخارجون عليه يرجونه
بالمروق — : « ما أعرف أحداً من هذه الأمة عبد الله بعد نبينا
غيري . عبت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين »
وزاده اتهام من حوله معتصماً بالثقة بنفسه ، فلما عتب عليه
خصمه طليحة والزبير أنه ترك مشورتها قال : « . . . نظرت إلى
كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته . وما استن النبي
صلى الله عليه وعلى آله وسلم فاقتديته . فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما
ولا رأي غيركما ، ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخواني
المسلمين ، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما . . . »
كان ملاك الأمر في أخلاق علي عليه السلام أنه كان
لا يتكلف إظهار شيء ولا يتكلف إخفاء شيء ولا يقبل التكلف
حتى من مادحيه . فربما أفرط الرجل في الثناء عليه وهو منهم
عنده فلا يدعه حتى يعلن له طويته ويقول له : « أنا دون ما تقول
وفوق ما في نفسك » . وكانت قلة التكلف هذه توافق منه
خلقته الكبرى من الشجاعة والبأس والامتلاء بالثقة والمتعة .
وكانت تسلك معه مسلك الحقيقة والمجاز على السواء . كأنه يعني
ما يصنع وهو لا يعنيه ، وإنما يجيء منه على البديهة كما تجيء
الأشياء من معادنها : كان مثلاً يخرج إلى مبارزته حاسر الرأس

ومبارزوه مقنعون بالحديد . أفعجيب منه أن يخرج إليهم حاسر النفس وهم مقنعون بالحيلة والرياء ؟ وكان يغفل الخضاب أحياناً ويرسل الشيب ناصعاً وهو لا يحرم خضابه في غير ذلك من الأحيان . أفعجيب منه ، مع هذا ، أن يقل اكترائه لكل خضاب سباتراً ما ستر ، أو كاشفاً ما كشف ، من رأى وخليقة ؟

بل كانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقة أخرى كالشجاعة في قوتها ورسوخها ، أو هي قرينة للشجاعة في نفس الفارس النبيل وقلما تفارقها ، ونعني بها خليقة الصدق الصراح الذي يجترئ به الرجل على الضر والبلاء كما يجترئ به على المنفعة والنعماء . فما استطاع أحد قط أن يخصى عليه كلمة خالف بها الحق الصراح في سلمه وحربه وبين صحبه أو بين أعدائه ، ولعله كان أحوج إلى المصانعة بين النصراء مما كان بين الأعداء ، لأنهم أرهقوه باللجاجة وأعنتوه بالخلاف ، فما عدا معهم قول الصدق في شدة ولا رخاء . حتى قال فيه أقرب الناس إليه إنه رجل يعرف من الحرب شجاعته ولكنه لا يعرف خدعتها . وكان أبداً عند قوله : « علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك ، على الكذب حيث ينفعك ، وألا يكون في حديثك فضل على علمك . وأن تتق الله في حديث غيرك »

* * *

وصدق في تقواه وإيمانه كما صدق في عمل يمينه ومقالة

لسانه . فلم يعرف أحد من الخلفاء أزهد منه في لذة دنيا أو سيب دولة ، وكان وهو أمير للمؤمنين يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيديها ، وكان يحتم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير فيقول : « لا أحب أن يدخل بطني إلا ما أعلم » . . . قال عمر بن العزيز وهو من أسرة أمية التي تبغض علياً وتخلق له السيئات وتخفي ما توافر له من الحسنات : « أزهد الناس في الدنيا على بن أبي طالب » . . . وقال سفيان : « إن علياً لم بين آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة » . وقد أرى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة إثارةً للمخاض التي يسكنها الفقراء ، وربما باع سيفه ليشتري بثمنه الكساء والطعام . وروى النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال : « دخلت على علي عليه السلام فإذا بين يديه لبن حامض أذنتي حموضته وكسر يابسة . فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتأكل مثل هذا ؟ فقال لي : يا أبا الجنوب ؟ كان رسول الله يأكل أبيض من هذا ويلبس أخشن من هذا — وأشار إلى ثيابه — فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به »

* * *

وعلى هذا الزهد الشديد كان رضى الله عنه أبعد الناس من كرازة طبع وضيق حظيرة وجفاء عشرة ، بل كانت فيه سماحة يتبسط فيها حتى يقال دعابة ، وروى عن عمر بن الخطاب

رضى الله عنه أنه قال له : « لله أبوك لولا دعاة فيك » وأنه قال لمن سألوه في الاستخلاف : « ما أظن إلا أن يلى أحد هذين الرجلين : على أو عثمان فإن ولى عثمان فرجل فيه لين ، وإن ولى على ففيه دعاة ، وأحر به أن يحملهم على الطريق »

وأغرق ابن العاص في وصف الدعاة فسمها « دعاة شديدة » ووفق يرددها بين أهل الشام ليقدر بها في صلاح الإمام للخلافة ، وإنما نقول إن ابن العاص أغرق في هذا الوصف ، وأن الدعاة المعيبة لم تكن قط من صفاته ، لأن تاريخ على وأقواله ونوادره مع صحبه وأعدائه محفوظة لدينا لا نرى فيها دليلاً على خلق الدعاة فضلاً عن الدليل على الإفراط فيه . فإن كان لهذا الوصف أثر أجاز لعمر بن الخطاب أن يذكره فربما كان مرجع ذلك أن علياً خلا من الشغل شاغل سنين عدة ، فأعفاه الشغل شاغل من صرامته وأسلمه حيناً إلى سماحته وأحاديث صحبه ومريديه . فحسبت هذه الدعة من الدعاة البريئة ثم بالغ فيها المبالغون ، ولم يثبتوها بقصة واحدة أو شاردة واحدة تجيز لهم ما تقولوه

* * *

والحق الذي لا مرأ فيه أنه كان على نصيب من الفضيلة النافذة لا ينكره منصف ، وأنه أشار على عمر وعثمان أحسن المشورة في مشكلات الحكم والقضاء ، وأنه كان أشبه الخلفاء

بالباحثين والمنقبين أصحاب الحكمة ومذاهب التفكير ، وعنه أخذ الحكماء الذين شرعوا علم الكلام قبل أن يتطرق إليه علم فارس أو علم يونان . . . وكان يفهم أخلاق الناس فهم العالم المراقب لحفايا الصدور ويشرحها في عظاته وخطبه شرح لأديب اللبيب هذا متفق عليه لا يكثر فيه الخلاف ، ثم يفترق الناس في رأيه رأيين وإن لم يكونوا من شائئين المتحزبين ، فيقول أناس إنه كان على قسط وافر من الفهم والمشورة ، ولكنه عند العمل لا يرى ما تقضى به الساعة الحازبة ولا ينتفع بما يراه. ويقول أناس بل هو الاضطراب والتخرج يقيدانه ولا يقيدان أعداءه وإنهم لدونه في الفطنة والسداد . وهو رضى الله عنه قد اعتذر لنفسه بمشابهة من هذا العذر حين قال : « والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس »

* * *

هذه صفات تنتظم في نسق موصول : رجل شجاع لأنه قوى ، وصادق لأنه شجاع ، وزاهد مستقيم لأنه صادق ، ومثار للخلاف لأن الصدق لا يدور بصاحبه مع الرضى والسخط والقبول والنفور ، وأصدق الشهادات لهذا الرجل الصادق أن الناس قد أثبتوا له في حياته أجمل صفاته المثلى ، فلم يختلفوا على شيء منها إلا الذى اصطدم بالمطامع وتفرقت حوله الشهوات ، وما من رجل تتعسف المطامع أسباب الطعن فيه ثم تنفذ منه إلى صميم

مفتاح شخصيته

« آداب الفروسية » هي مفتاح هذه الشخصية النبيلة الذي يفض منها كل مغلق ويفسر منها كل ما احتاج إلى تفسير . وآداب الفروسية هي تلك الآداب التي تلخصها في كلمة واحدة وهي : النخوة

وقد كانت النخوة طبعاً في عليّ فطر عليه ، وأدباً من آداب الأسرة الهاشمية نشأ فيه ، وعادة من عادات « الفروسية » العملية التي يتعودها كل فارس شجاع متغلب على الأقران ، وإن لم يطبع عليها وينشأ في حجرها . لأن للغلبة في الشجاع أنفة تأبى عليه أن يسف إلى ما ينجله ويشينه ، ولا تزال به حتى تعلمه النخوة تعليماً وتمنعه أن يعمل في السر ما يزرى به في العلانية

وهكذا كان علي رضي الله عنه في جميع أحواله وأعماله : بلغت به نخوة الفروسية غايتها المثلى ، ولا سيما في معاملة الضعفاء من الرجال والنساء . فلم ينس الشرف قط ليغتحم الفرصة ، ولم يساوره الريب قط في الشرف والحق أنهما قائمان دائماً كأنهما مودعان في طبائع الأشياء . فإذا صنع ما وجب عليه فلينس من شاءوا ما وجب عليهم ، وإن أفادوا كثيراً وباء هو بالخسار

أصاب المقتل من عدوه مرات فلم يهتبل الفرصة السانحة بين يديه ، لأنه أراد أن يغلب عدوه غلبة الرجل الشجاع الشريف ، ولم يرد أن يغلبه أو يقتص منه كيفما كان سبيل الغلب والقصاص

قال بعض من شهدوا معركة صفين : لما قدمنا على معاوية وأهل الشام بصفين وجدناهم قد نزلوا منزلاً اختاروه مستويّاً بساطاً واسعاً وأخذوا الشريعة - أى مورد الماء - فهي فى أيديهم . . . وقد أجمعوا على أن يمنعونا الماء . ففزعنا إلى أمير المؤمنين فخبّرناه بذلك فدعا صعصعة بن صوحان فقال له : « ائت معاوية وقل له إنا سرنا مسيرنا هذا إليكم ونحن نكره قتالكم قبل الإغدار إليكم ، وإنك قدمت إلينا خيلك ورجلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا ، ونحن من رأينا الكف عنك حتى ندعوك ونحتج عليك ، وهذه أخرى قد فعلتموها إذ حلتم بين الناس وبين الماء ، والناس غير منتهين أو يشربوا . فابعث إلى أصحابك فليخلوا بين الناس وبين الماء ويكفوا حتى ننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم له . . . »

ثم قال راوى الخبر ما فحواه إن معاوية سأل أصحابه فأشاروا عليه أن يحول بين على وبين المورد غير حافل بدعوته إلى السلم ولا بدعوته إلى المفاوضة فى أمر الخلاف ، فأنفذ معاوية مبدأ إلى حراس المورد يحمونه ويصدون من يقترب منه . ثم

كان بين العسكرين تراشق بالنبل فطعن بالرماح فضرب
بالسيوف حتى اقتحم أصحاب على طريق الماء وملكوه

وهنا الفرصة الكبرى لو شاء على أن يهتبلها وأن يغلب
أعداءه بالظماً كما أرادوا أن يغلبوه به قبيل ساعة . . . وقد جاء
أصحابه يقولون : والله لا نسقيهموه . . فكأنما كان هو سفير
معاوية وجنده إليهم يتشفع لهم ويستلين قلوبهم من أجلهم .
وصاح بهم : « خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا إلى عسكركم
وخلوا عنهم ، فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم »
ولاحت له فرصة قبل هذه الفرصة في حرب أهل البصرة ،
فأبى أن يهتبلها وأغضب أعوانه إنصافاً لأعدائه ، لأنه نهاهم أن
يسلبوا المال ويستبيحوا السبي وهو في رأيهم حلال . قالوا : أترأه
يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم ؟ فقال : « إنما القوم أمثالكم .
من صفح عنا فهو منا ونحن منه ، ومن لج حتى يصاب فقتاله
منى على الصدر والتحر » وسن لهم سنة الفروسية أو سنة النخوة
حين أوصاهم ألا يقتلوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح ولا يكشفوا
سترأ ولا يمدوا يداً إلى مال

ومن الفرص التي أبت عليه النخوة أن يهتبلها فرصة عمرو
ابن العاص وهو مأتى على الأرض مكشوف السواة لا يبالي أن
يدفع عنه الموت بما حضره من وقاء . فصدف بوجهه عنه نقاً أن
يصرع رجلاً يخاف الموت هذه المخافة التي لا يرضاها من منازل.

في مجال صراع . ولو غير على " أتيج له أن يقضى على عمرو ولعلم أنه قاض على جرثومة عداء ودهاء فلم يبال أن يصيبه حيث ظفر به ، ولا جناح عليه

لقد كان رضاه من الآداب في الحرب والسلام رضى الفروسية العزيزة من جميع آدابها ومآثراتها

فكان يعرف العدو عدوًّا حينما رفع السيف لقتاله . ولكنه لا يعادى امرأة ولا رجلاً مولياً ولا جريحاً عاجزاً عن نضال ولا ميتاً ذهبت حياته ولو ذهبت في سبيل حربه . بل لعله يذكر له ماضيه يومئذ فيقف على قبره ليبكيه ويرثيه ويصلى عليه . وهذه الفروسية هي التي بغضت إليه أن ينال أعداءه بالسباب وليس من دأب الفارس أن ينال أعداءه بغير الحسام ، فلما سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حروبهم بصفين قال لهم : « إني أكره لكم أن تكونوا سبابين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول ، وأبلغ في العذر ، وقلتم مكان سبكم إياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيتنا وبينهم ، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ، ويرعوى عن الغي والعدوان من لهج به »

وربما شذ عن سنته هذه في بعض الأحيان فإذا هو لا يشذ عنها إلا كما يشذ الفرسان حيث تغلبهم بوادى اللسان .

فندر بين رجال السيف من يسمع الكلمة المغضبة فلا ينطلق
لسانه بكلمة عوراء يجارى بها غضبه الذى طبع على إبدائه
ولم يطبع على كتمانها

ومن قبيل هذا كلمات قالها فى ابن العاص وفى معاوية
وفى الأشعث بن قيس وغير هؤلاء . ولكنه لم يجعلها دليلاً
له كما سبوه على المنابر وأشاعوا مذمته بين أهل الأمصار

شغب على الأشعث بن قيس ومرد عليه الجند وأفشى
بين أنصاره بالفتنة وقاطعه مرة وهو يخطب على منبر الكوفة
فأغضبه وهاج غيظه فبدره بقوله : « عليك لعنة الله ولعنة
اللاعنين : حائك بن حائك ، منافق بن كافر . والله لقد
أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى ، فما ذاك من واحدة
منهما مالك ولا حسبك ، وإن امرأً ولى على قومه السيف
وساق إليهم الحتف لحرى أن يمقته الأقرب ولا يأمنه الأبعد »

وظفق ابن العاص ينعته بين أهل الشام بالهزل والدعابة
ويأمر بسبه على المنابر حتى وجب رده وإدحاض زعمه .
فقال رضى الله عنه فى بعض خطبه : « عجباً لابن النابغة !
يزعم لأهل الشام أن فى دعابة وأنى امرؤ تلعبه : أعانس
وأمارس^(١) . . . لقد قال باطلاً ونطق آثماً . أما - وشر
القول الكذب - إنه ليقول فيكذب ، ويعد فيخلف ،

(١) المعانسة مضاربة الناس مزاحاً ومنازلة النساء .

ويسأل فيبخل ، ويخون العهد ويقطع الإل^(١) ، فإذا كان عند الحرب فأى زاجر وأمر هو ما لم تأخذ السيوف مأخذها ، فإذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمنح القوم سببه . أما والله إنى ليمنعنى من اللعب ذكر الموت ، وإنه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة . إنه لم يبايع معاوية حتى شرط أن يؤتبه أتية ويرضخ له على ترك الدين رضىخة^(٢) . . . »

وكذلك كان يحبه معاوية وغيره بنفائز هذه الكلمات حين يجترئون عليه بما يغض من حقه ويقده في دعوته . فلا يشذ عن ديدن الفرسان في روية فكره ولا في بوادر لسانه ، ولكن الفلتات التى من هذا القبيل شئ واتخاذ السباب صناعة دائمة وسلاحاً مشهوراً وسبيلاً إلى القول الباطل شئ آخر

فالإمام على^٢ رضى الله عنه فارس لا يخرج من الفروسية فقه الدين بل هو أحرى أن يسلكه فيها ، ولا يخرج من الفروسية بعض المقال في خصومه بل هى بوادر الفرسان بعينها ، ولا تزال آداب الفروسية بشتى عوارضها هى المفتاح الذى يدار فى كل باب من أبواب هذه انفس فإذا هو منكشف للناظر عما يليه

(١) الإل القرابة والرحم . (٢) الأتية العطية ومثلها الرضاخة مع قلة .

إسلامه

ولد على في داخل الكعبة ، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها ، فكأنما كان ميلاده ثمة إيداناً بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها .

وكاد على أن يولد مسلماً
بل قد ولد مسلماً على التحقيق إذا نحن نظرنا إلى ميلاد العقيدة والروح . لأنه فتح عينيه على الإسلام ولم يعرف قط عبادة الأصنام

فهو قد تربى في البيت الذي خرجت منه الدعوة الإسلامية ، وعرف العبادة من صلاة النبي وزوجه الطاهرة قبل أن يعرفها من صلاة أبيه وأمه ، وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابة مضاعفة ومحبة أوثق من محبة القرابة . فكان ابن عم محمد عليه السلام وربيبه الذي نشأ في بيته ونعم بعطفه وبره . وقد رأينا الغرباء يحبون محمداً ويؤثرونه على آبائهم وذويهم . فلا جرم يحبه هذا الحب من يجمعه به جد ، ويجمعه به بيت ، ويجمعه به جميل معروف : جميل أبي طالب يؤديه محمد وجميل محمد يحسه ابن أبي طالب ويأوى إليه

واختلفوا في سنه حين إسلامه من السابعة إلى السادسة عشرة ، ولعله أسلم في نحو العاشرة لأنه كان يناهزها عند إعلان الدعوة المحمدية ، وكان النبي عليه السلام يتعبد في بيته عبادة الإسلام قبل الدعوة بفترة غير قصيرة ، وليس ما يمنع علياً أن يألف تلك العبادة في طفولته الباكرة

ولولا ألفة على لابن عمه وكافله لما قربته القرابة وحدها من الدين الذي دعى إليه ، فقد أصر كثير من أقرباء النبي على الشرك زمناً طويلاً ، منهم عقيل أخوه وأحب إخوته إلى أبيه . فعارب المسلمين في بدر ولم يسلم وقد وقع في أسر النبي وصحبه . بل افتداه عمه العباس وخرج من الأسر وهو على دينه ، ثم أسلم بعد صلح الحديبية مع طائفة من الغرباء والأقربين

على أن الألفة بين ابني العم الكريمين قد أوشكت أن تكون عائقاً لإسلام على في طفولته الباكرة . لأن النبي عليه السلام أرى أن ينتزع الطفل من دين أبيه وأبوه لا يعلم ، وأشفق أن يكون بره بعمه وبابن عمه سبيلاً إلى التفرقة بين الأب وابنه وهو لا يدرك ما يفعل ، ولم يشأ أن يعود الطفل الصغير أن يخفى سرّاً عن أبيه كأنه يخدعه بإخفائه ولو في سبيل الهداية والخير . فظل هذا الحرج الكريم عائقاً عسيراً أعسر ما فيه أنه عائق اختيار يهون معه الاضطراب ، أو عائق

حيرة تقل فيها حيلة الكريم . حتى شاع أمر الدعوة الحمديدية وعلم بها أبو طالب ونصر ابن أخيه وأمر علياً بمتابعة ابن عمه ونصره . فأقبل الغلام البر بأبيه وبكافله إقبالاً لا تلجلج فيه على الدين الجديد

وكان دينه له ولعدوه ، بل له ولعدو دينه ، فما كان الحق عنده لمن يرضاه دون من يقلاه ، ولكنه كان الحق لكل من استحقه وإن بهته وآذاه

وجد درعه عند رجل نصراني فأقبل به إلى شريح — قاضيه — يخاضعه مخاضمة الرجل من عامة رعاياه ، وقال : إنها درعى ولم أبع ولم أهب . فسأل شريح النصراني : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ قال النصراني : ما الدرع إلا درعى وما أمير المؤمنين عندي بكاذب . فالتفت شريح إلى علي يسأله : يا أمير المؤمنين هل من بينة ؟ فضحك علي وقال : أصاب شريح . ما لي بينة ! فقضى بالدرع للنصراني فأخذها ومشى و « أمير المؤمنين » ينظر إليه . . . إلا أن النصراني لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء . . . أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه يقضى عليه ! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ! الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين . اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك

الأورق . فقال : أما إذ أسلمت فهي لك : وشهد الناس هذا الرجل بعد ذلك وهو من أصدق الجند بلاء في قتال الخوارج يوم النهروان

* * *

إلا أن المزية التي امتاز بها عليّ بين فقهاء الإسلام في عصره أنه جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل ولم يقصره على العبادة وإجراء الأحكام ، فإذا عرف في عصره أناس فقهوا في الدين ليصححوا عباداته ويستنبطوا منه أفضيته وأحكامه ، فقد امتاز علي بالفقه الذي يراد به الفكر المحض والدراسة الخالصة .

ويصح أن يقال إن علياً رضي الله عنه أبو علم الكلام في الإسلام ، لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه كما قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة . فواصل ابن عطاء كبيرهم تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ أبيه ، وأبوهم تلميذ علي رضي الله عنه ، وأما الأشعرية فإنهم ينتمون إلى أبي الحسن علي بن أبي الحسن علي بن أبي الجبائي وأبو علي الجبائي أحد مشايخ المعتزلة الذين علمهم واصل بن عطاء . أما الفقه فإمامه الأكبر أبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد وجعفر بن محمد

قرأ على أبيه وهكذا ينتهى الأمر إلى على رضى الله عنه .
وقد قرأ مالك بن أنس على ربيعة الرأى وقرأ ربيعة على
عكرمة وقرأ عكرمة على عبد الله بن عباس وقرأ عبد الله بن
عباس على على رضى الله عنه . وقيل لابن عباس : أين
علمك من علم ابن عمك ؟ فقال : كنسبة قطرة من المطر
إلى البحر المحيط

قال ابن أبي الحديد : « ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة
وأحوال التصوف . وقد عرفت أن أرباب هذا الفن في جميع
بلاد الإسلام إليه ينتهون وعنده يقفون . وقد صرح بذلك
الشبلى والخنيد وسرى وأبو زيد البسطامى وأبو محفوظ معروف
الكرخنى وغيرهم ، ويكفيك دلالة على ذلك الحرقرة التى
هى شعارهم إلى اليوم وكونهم يسندونها بإسناد متصل إليه
عليه السلام . . . »

وقد جمع « نهج البلاغة » نماذج شتى من الكلمات
التي تنسب إليه ويصح أن تحسب أصلاً « للعلم الإلهى »
أو لأسرار التصوف فى صدر الإسلام قبل اشتغال المسلمين
بفلسفة اليونان وحكمة الأمم الأجنبية . وربما وقع الشك فى
نسبة بعض هذه الكلمات إلى على رضى الله عنه لأنها تجمعت
بعد عصره بزمان طويل وامتزج بها ما لا بد أن يمازجها من
علوم القرن الثالث وما بعده . ولكن شيئاً على هذا النهج

لا بد أن يكون قد صدر منه حقاً حتى جاز أن يتصل النسب
بينه وبين أئمة التوحيد وعلم الكلام على النحو الذي تواترت
به الأقوال وأجمله ابن أبي الحديد فيما تقدم

ولنا أن نقول إنه كان رضى الله عنه يتلمذ للقرآن الكريم
ويستوحيه نصاً في عرفان إسلامه وتقرير إيمانه . فكانت
نظرة إلى الخلق والخالق نظرة قرآنية يبتكر فيها ما شاء ابتكار
التلميذ في الحكاية عن الأستاذ . فكلامه عن الطاووس والخفاش
والزعر والسحاب إنما هو الدرس القرآني الذي وعاه من أمر
الكتاب بالنظر في المخلوقات ووصف الكتاب لطوائف منها
كالنمل والنحل والطيور والأجنة في الأرحام

ونحن لا نستغرب ابتداء النظر الفلسفي على نحو من
الأنحاء في عصر الإمام علي رضي الله عنه ، لأنه كان
عهداً نبت فيه أصول الفرق الإسلامية جميعاً من الخوارج
والشيعة والقائلين بالرجعة وتناسخ الأرواح والمجهدين في
قراءة القرآن وتفسيره على شتى المذاهب . . . فأقرب شيء
إلى المعقول أن يكون إمام العصر كله قدوة في الاجتهاد
والنظر وعنواناً للنوازع التي تفرقت بين أهل زمانه ، وتعبيراً
صادقاً لتفكيره ووعيه ، وصاحب أقوال من قبيل هذه
الأقوال التي قدمناها وإن لم تكن هي إياها بالنص والتفصيل .

عصر الإمام

كانت الظاهرة الكبرى في عصر عليّ ظاهرة اجتماعية خاصة به دون عصور الخلفاء من قبله ، ولم تكن في حقيقتها ظاهرة سياسية أو حربية عسكرية ، على شدة القتال فيها وغزارة الدماء التي أريقَت في حروبها
فعصر أبي بكر كان هو العصر الذي نشأت فيه الدولة الإسلامية

وعصر عمر كان هو العصر الذي تم فيه إنشاؤها
وعصر عثمان كان هو العصر الذي تكون فيه المجتمع الإسلامي بعد نشأة الدولة الجديدة ، فبرز فيه نظام جديد على أساس الثروة المجلوبة من الأقطار المفتوحة ، وعلى أساس الولايات التي تولّاها بعض الطبقات المرشحة للرئاسة من العلية وأشباهها

أما عصر عليّ فكان عصرًا عجيبًا بين ما تقدمه وجاء في أعقابه ، أو هو لم يكن عجيبًا لأنه جرى على النحو الذي ينبغي أن يجري عليه . فلم يثبت كل الثبوت ولم يضطرب كل الاضطراب ، لأنه كان بناءً جديدًا في سبيل التمام ،

ولم يكن بناء متداعياً فكله هدم واندثار ، ولا بناء قائماً مفروغاً منه فكله رسوخ واستقرار

إلا أن العجيب فيه حقاً أنه انقسم بين ثبوته واضطرابه قسمين اثنين متقابلين : في أحدهما كل عوامل الرضى عن النظام الاجتماعى والرغبة فى بقاءه وتدعيمه ، وفى الآخر كل عوامل التذمر من النظام الاجتماعى والتحفز لتقويضه وتحويله

أحدهما وهو قسم الرضى عن النظام الاجتماعى كان قسم معاوية بن أبى سفيان فى الشام وما جاورها

والآخر وهو قسم التذمر من النظام الاجتماعى — كان قسم على بن أبى طالب فى الجزيرة العربية بجملة أنحائها

* * *

كانت الشام بمعنى من المعانى أرضاً أموية فى عهد الجاهلية . فلجأ إليها أمية نجد الأمويين حين غلبه هاشم على الزعامة ، وقصد إليها أبناؤه متجربين أو مهاجرين إلى ما بعد قيام الدعوة الإسلامية

ثم قامت الدعوة الإسلامية فكان من نصيب يزيد بن أبى سفيان أن يتولى الإمارة والقيادة على الشام من قبل الخليفة أبى بكر الصديق ، وخلفه أخوه معاوية من قبل الخليفة عمر ، فلم يزل مقيماً على إمارتها بضع عشرة سنة إلى مبايعة على بالخلافة بعد مقتل عثمان . فانتفع له من فسحة الوقت

وفسحة الرخاء مجال م مهد لتأسيس السلطان الأموى الذى لا ينازعه منازع من حوله . ولم يزل منذ توليها عاملا على البقاء فيها واصطناع الأعوان المؤيدين له فى حكمها . فلم يتوان فى استرضاء رجل ينفعه رضاه ، ولم يقصر رعايته على الشرفاء دون السواد من الأتباع والأجناد . بل كان يرضى كل من وسعه إرضاءه ، وقد وسعت ثروة الشام كل صاحب حاجة مقيم عنده أو ساع إليه

وعلى قدر هذا الدأب الشديد فى اجتلاب أسباب التمكين والتدعيم كان له دأب مثله فى اتقاء أسباب التمرد ، والإخلال بالنظام كما نسميه فى هذه الأيام ، فما سمعت قط صيحة فتنة إلا بادر إليها بما يسكتها ويردها إلى طلب الاستقرار والدوام . فن أجدى معه المال أسكته بإغداق المال عليه ، ومن كان من أهل الجحد والإخلاص فى العبادة والزهادة فهو محتال على إقصائه أو نفيه من الشام بحيلة يوافقه عليها شركاؤه فى المصلحة ، ولا تعييه

حق بعض الزهاد على هذا الترف الذى استفاض بين العلية والشرفاء فارتفعت عليهم صيحة أبى ذر الغفارى بالنكير ، فأشفق معاوية من مغبة هذه الصيحة وأرسل إلى أبى ذر ألف دينار يسكته بها إن كان ممن يسكتهم الغنى عن الأغنياء . فما طلع النهار حتى كانت الدنانير فى أيدي

المعوزين الذين يلوذون بالداعية الأمين ويشكون إليه . ثم صلى معاوية الصبح وأرسل إلى الداعية الأمين رسوله الذي حمل إليه الدنانير يقول له : « أنقذ جسدى من عذاب معاوية فإنه أرسلنى إلى غيرك فأخطأت بك . فقال له : يا بنى . قل له : والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار . ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها » ... فعلم معاوية أن الرشوة هنا لا تغنى عن القسوة . وكتب إلى الخليفة أن أبا ذر أعضل به فلا طاقة له بالصبر عليه ، فأتاه الإذن بنى أى ذر من الشام إلى المدينة ، ثم ضاقت به المدينة أيضاً فنفى منها إلى قرية من أرباضها حيث لا يسمع له دعاء

وصنع بعبد الله بن سبأ — صاحب القول - برجة النبي إلى الدنيا ووصاية علىّ على الخلافة — مثل هذا الصنيع بعد أن داراه فأعياه . فلما يئس منه ومن ترغيبه أو ترهيبه ضيق عليه ثم أقصاه .

* * *

وهكذا تعاقبت السنون ، وكل سنة تزيد معاوية وفرة من أسباب الرضى والاستقرار وقلة من أسباب القلق والطموح إلى التغيير ، حتى - تجهزت له الشام عند مبايعة علىّ وفيها أعظم ما يتأتى فى مثل ذلك العهد من دواعى السكينة واستدامة الحال ، وأقل ما يتأتى فيه من شواجر الفتنة والعصيان .

أما على فقد شاءت المصادفات أن تنعكس الآية في حصته من الدولة الإسلامية أيما انعكاس . فأوشكت أن تنعدم فيها دواعي الرضى والاستدامة ، وأوشكت أن تتم فيها شواجر الفتنة وما نسميه اليوم بالإخلال بالنظام

فكان التنافس عنده على أشده بين العاصمتين الحجازيتين وبين الكوفة ، لا يرضى أهل المدينة بما يرضى أهل مكة ، ولا يرضى أهل الكوفة بما يرضى هؤلاء وهؤلاء . حتى ضاقت به المقام في الحجاز وأوى إلى الكوفة مأوى « المستجير من الرمضاء بالنار »

وكانت قبائل البادية تنفس على قريش غنائم الولاية ومناصب الدولة ، وينظرون إليهم نظرهم إلى القوى المستأثر بجاه الدين والدنيا وحق الخلافة والسطوة . وهى حالة كان أحجى بالولاية أن يخفوها ويتلطفوا في إصلاحها أو تبديلها ما استطاعوا لها من إصلاح وتبديل . ولكنهم على نقیض ذلك كانوا يباهون بها ويجهرون بحديثها حتى قال سعيد ابن العاص وإلى الكوفة : إنما السواد بستان لقريش !

وظهر هذا السخط من أثره قريش في خطب المتكلمين بلسان أهل البادية حين نشب النزاع بين طلحة والزبير وأنصارهما وبين علي وأنصاره . فقام في الجمع رجل من عبد القيس يقول :

« يا معشر المهاجرين ! أنتم أول من أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لكم بذلك فضل . . . » إلى أن قال يشير إلى خلافة أبي بكر : « ولم تستأمرونا في شيء من ذلك فجعل الله للمسلمين في إمارته بركة . ثم مات واستخلف عليكم رجلا فلم تشاورونا في ذلك . فرضينا وسلمنا ، فلما توفي جعل أمركم إلى ستة نفر فاخترتم عثمان ، وبايعتموه عن غير مشورة منا ، ثم بايعتم علياً من غير مشورة منا . فما الذي نقمتم عليه فنقاتله ؟ . . »

وهذا كلام رجل يدين بفضل المهاجرين ويقدمه في صدر مقاله . فكيف بكلام الرجال ممن ينسون هذا الفضل أو تغلبهم المنافسة على الشهادة به في معرض الخصومة ! ولعل النافذين بهذا الغيظ كانوا يثوبون إلى بعض الصبر والتجاوز لو أنهم وجدوا من يشكون إليه فيحسن الإصغاء إلى شكواهم والاعتراف لهم بالحق في دعواهم . ولكنهم كانوا يشكون فيثور بهم المخالفون ويلجئونهم إلى الصمت راغمين . فلما قال ذلك الرجل مقالته هموا بقتله لساعته لولا أن حمته عشيرته وصحبه . ثم وثبوا عليه في الغد فقتلوه وقتلوا معه قرابة سبعين

* * *

وكان العبيد والموالى والأعراب المحرومون حائقين متبرمين

لا يرضون عن حظهم من العيش بعد أن علمهم الإسلام حقوق المساواة وشرع لهم شريعة الإنصاف ، ولقد يكون معظم المتآمرين على قتل عثمان من هؤلاء العبيد والموالى والأعراب المحرومين . فلما طُلب على بالاختصاص منهم لمقتل عثمان قال : « . . . كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ، وثابت إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا . فهلا ترون موضعاً لقدرتي على شيء مما تريدون ؟ »

وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها : « أيها الناس ! إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً بالأمس . . . والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم . . »

* * *

وكان مع عليّ جمهرة القراء والحفاظ وأصحاب النسك والفقهاء والشريعة ، وهم خلق كثير يعدون بالآلوف ويتفرقون في الحواضر والبادي ، ولا يزالون كأنبياء بني إسرائيل منذرين متوعدنين ساخطين على ترف المترفين ، منكرين لكل خلاف ولو يسير في إقامة أحكام الدين . لا يرضون عن الدنيا ولا عمن رضي بها من طلابها ، ولا يستمعون إلى أمر إلا أن يكون في رأيهم وفاقاً لحكم القرآن كما يفسرونه وحكم السنة

كما يعتقدونها . وطالما وقفوا بين عليّ وبين القتال لأنهم لا يستجيزونه ، أو عن الصلح والتحكيم لأنهم يحلون القرآن عن قبوله . فإذا كان أجناد معاوية يسمعون الحق والباطل لأنهم لا يفرقون بينهما ولا يفرقون بين الحمل والناقة فهؤلاء الأجناد العارفون لا يسمعون إلا ما أجازوه واستوجبوه . لأنهم خرجوا في الأرض للتفريق بين الحلال والحرام والمعروف والمنكر . فلا يجمعون على طاعة ولا يحاربون أو يسلمون في جماعة . وهم أقرب الناس في ذلك العهد إلى الجهر بالندير والنداء بالتبديل والتغيير ، والإصغاء إلى وحى الضمير قبل دعاء الأمير

* * *

واجتمع مع عليّ في الحجاز والكوفة كل منافس على الخلافة متطلع إليها ولو لم يجهر بطلبها مخافة من شركائه الذين يزاحمون عليها ، فمنهم من كان يقول لعليّ : نبايعك على أنا شركاؤك ، ومنهم من كان يتعلل بقلّة المشاورة له والمبالاة بقوله . ومنهم من كان يحارب عثمان ثم أصبح يحارب عليّاً باسم عثمان ، تمحلا للنرائع الخلاف وكراهة لاستقرار الأمور

* * *

وقد كان أبو بكر وعمر بمسكان كبار الصحابة بالحجاز ويحذران منهم أن ينطلقوا في الأرض فيقلبوا الدنيا ويشجر

بينهم من النزاع ما يشجر بين طلابها ، ثم ينصدع شمل
 الأمة بالتشيع لهم وعليهم والنفرك بين أنصارهم وأعدائهم .
 وأوصى أبو بكر خليفته من بعده قائلا : « . . . احذر
 هؤلاء نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين
 انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل امرئ
 منهم لنفسه ، وإن منهم لحيرة عند زلة واحد منهم . فإياك أن
 تكونه ، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله . . . »

فلما صارت الخلافة إلى عثمان أهمل هذه السياسة
 الحكيمة وشق عليه أن يطيل حبسهم بالحجاز والهيمنة عليهم
 بجواره ، فانطلقوا حيث ذهبت بهم المذاهب ، وكان منهم
 ما حذره أبو بكر حيث قال لعبد الرحمن بن عوف : « ورأيتم
 الدنيا قد أقبلت . . . حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد
 الديباج وحتى يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذري (١)
 كما يألم أحدكم إذا نام على حسك السعدان . . . »

روى المسعودي أنه « في أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع
 والمال ، فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف
 دينار وألف ألف درهم ، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين
 وغيرها مائة ألف دينار وخلف إبلا وخيلا كثيرة ، وبلغ
 الثمن الواحد من متروكه الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ،

(١) منسوب إلى أذريجان .

وخلف ألف فرس وألف أمة . وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك . وكان على مربوط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً ، وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس ، غير ما خلف من الأموال والضياع . وبني الزبير داره بالبصرة وبني أيضاً بمصر والكوفة والإسكندرية ، وكذلك بني طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبنائها بالحص والآجر والساج ، وبني سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات ، وبني المقداد داره بالمدينة وجعلها محصصة الظاهر والباطن ، وخلف يعلى بن منه خمسين ألف دينار وعقاراً وغير ذلك ما قيمته ثلثمائة ألف درهم »

* * *

هؤلاء أيضاً أصبحوا في حصّة على من الدولة الإسلامية عنصراً من أقوى عناصر القلق والتبرم والنفور من دوام الأمر للحكومة الجديدة ، خلافاً لأمثالهم ونظرائهم في معسكر معاوية .

فالذى يغلب على أصحاب الثروات في كل مجتمع أنهم أنصار الحالة القائمة وأعداء الثورة والاضطراب السياسى

أو الاجتماعى على التخصيص ، ولكن هؤلاء الأغنياء خالفوا
المعهود فى مجتمع على " فأصبحوا قادة السخط والشكوى وأعوان
الثورة والتغيير ولو فى سرائر القلوب كلما حيل بينهم وبين
الظهور فى الثورة بفعل محسوس . لأنهم عرفوا علياً من قبل
ومن بعد فعلموا أنه لن يقرهم على ما هم فيه ولن يلبث أن
يحاسبهم على ما جمعه من المال أو يأخذ عليهم طريق المزيد
عرفوا مذهبهم فى حساب الولاية ومذهبهم فى حساب الخلافة .

فلما كان والياً لليمن ألى على بعض الصحابة أن يركبوا إبل
الصدقة وقال لهم : إنما لكم منها سهم كما للمسلمين . ثم
لام العامل الذى أذن لهم أن يركبوها فى غيبته وهو منصرف
إلى الحج . وشاعت هذه القصة . لأن أناساً شكوه إلى رسول
الله عليه السلام ، فأنكر شكواهم منه وقال : « لقد علمت
أنه جيش فى سبيل الله »

ولما قام عثمان بالخلافة طال عتب على " عليه ، لأنه أباح
للعمال والولاة ما ليس بمباح فى رأيه ، ولقى بالعتاب كل صحابي
من إخوانه جمع مالا واستهوته فتنة البذخ والثراء
وليس مذهبهم والياً ولا مذهبهم خليفة بمريح أولئك الأغنياء
الذين ذاقوا حلاوة الغنى وكرهوا أن يحرموه أو يحاسبوا عليه
ولم يكن فى وسع على " أن يغض عنهم نظره ولو شاء
ذلك ، وهو لا يشاؤه ولا يحله لنفسه وقد أنكره على غيره

لأنه إذا غض نظره لم يستطع أن يغض الأنظار المفتوحة التي ثارت بعثمان وبايعت عليه بعده ليصنع غير ما صنعه عثمان وغير ما أثارهم عليه

فلا دعاة الدنيا راضون مطيعون ولا دعاة الدين راضون مطيعون ، ولا الفقراء والجهلاء راضون مطيعون ، وما منهم إلا من هو قلق متوفر لا يسكن به سكن ولا يدوم به قرار

وإن هذه الشواجر على كثرتها وقوتها لفي غنى عن علة أخرى من علل الفساد والشقاق تضاف إليها . ولكنها مع هذا لم تستوعب تلك العلل التي اصطلحت على حصّة على من الدولة الإسلامية . فقد أضيفت إليها علة أخرى ، بل أضيفت إليها أكبر العلل التي تتبلى بها دولة أو حكومة . وهي اعتمادها في مواردها على غيرها

فكانت موارد الشام في الشام نفسها من خراج أو أنفال أو تجارة . أما موارد الحجاز فقد كانت بعيدة منه وإن دخلت في طاعته وجنحت إلى القائم بالأمر فيه . وكانت مصر والسودان من حصّة على ، ولكنه لم ينتفع بمصر كثيراً لتعاقب الولاة فيها ، ولم يستفد بالسودان كثيراً لتعاقب الفتن والغارات عليها . وحسبك من هذا داعية قلق وباعث مخافة ومبطل أمان وطمأنينة

وينبغي أن نذكر أن الحيلة في هذا التقسيم قليلة ،

وأن الحوادث هي التي اختارت لكل حصّة من الحصتين زعيمها وأشبه الناس بها وأقربهم إلى ولاية أمرها و « كما تكونوا يول عليكم » . . . ولا محل في هذه القاعدة لحيلة أو اختيار

فلم يكن أحد أشبه بقيادة المنافع المستبقة من معاوية ، ولم يكن أحد أشبه من عليّ بقيادة الشكوى التي تطمح بأصحابها إلى التغيير

إن شكّا أناس غلبة قريش فعلىّ كان يشكو منها ويظن الظنون بحقدّها عليه ونكرانها لحقه

وإن جاءت صيحة الإصلاح والتغيير من طريق الذين على مذهب الحفاظ والقراء والنسك فعلىّ كان إمام أهل العلم والقراءة ، وأحقّ من يتكلم بتفقيه أو تفسير

وإن جاءت من ضيم الفقراء فعلىّ فقير ، أو من تهافت الولاة على المال فعلىّ يبغض التهافت كما يبغضه أضعف الفقراء ، عن زهد فيه لا عن قلة في الوسائل إليه

فما شكّا شاك قط إلا وعلىّ شريك له في شكواه . وكيف ينجو رجل كهذا من قيادة الدولة التي قامت على التبرم بالحال والطموح إلى التغيير ؟ وأي حيلة له إلى جانب خيلة الحوادث وتوفيق المقادير ؟

البيعة

بويح لعلّ بالخلافة بعد حادثة من أفجع الحوادث الدامية في تاريخ الإسلام ، وهى مقتل الخليفة عثمان بن عفان في شيخوخته الواهنة بعد أن حصروه بين جدران داره ، وكاد يقتله الظمأ لو أمهله القتلة بضعة أيام

وأفجع ما كان في هذه الحادثة أنها بلاء لا يدفع وقضاء لا حيلة لأحد في اتقائه ، لأن المسؤولين عنه كثيرون متفرقون في كل جانب يناصره أو يعاديه . فإذا امتنع الأعداء لم يمتنع الأصدقاء ، وإذا بطل الشر الذى فيه اختيار لم يبطل الشر الذى لا اختيار فيه ، وربما كان حسن النية وسوء النية هنا صنوين متساويين . فمن الأعمال المؤسفة التى عجلت بالفاجعة أعمال كثيرة بدرت من عثمان نفسه ، أو لعله أقدم عليها بعد قصد ومراجعة ، وليست هى في تعجيلها ولا في سوء مغبتها بأهون من أعمال الأعداء

مضت السنون الأولى من خلافة عثمان على خير ما كان يرجى لها أن تمضى في عهد خليفة

ثم تغيرت الأحوال فجأة من جانب الراعى ومن جانب

الرعية ، لأسباب لم تكن طارئة ساعة ظهورها ، وإن ظهرت عواقبها طارئات

وتتعدد الأسباب التي أوجبت ذلك التغيير بعد السنوات الأولى ، ولكنها قد تنحصر في سببين اثنين نجامعين لغيرهما من الأسباب العديدة ، وهما إمعان الخليفة في الشيخوخة ، واستمراء الأعوان لما نعموا به من لين الخليفة ولين الرغد والمتاع

وإننا نجتزئ هنا بالإشارة إلى التذمر الذي أثار الفتنة ، والإمام بأسبابه عند أصحابه ، فأهم هذه الأسباب أنه خالف بعض السنن التي اتبعها النبي عليه السلام في الأذان والصلاة ، وأنه أدنى أناساً من أقاربه كان رسول الله عليه السلام قد أقصاهم عن المدينة ، فاستدعاهم إليه بعد استخلافه وأغدق عليهم المنح والأموال ، وأنه أطلق العنان لأبناء أسرته في الولاية والعمالة ، ومنهم من اتهموه بإقامة الصلاة وهو سكران ، وأنه منح سفيان بن حرب مائتي ألف درهم ومنح الحارث بن الحكم زوج بنته عائشة مائة ألف درهم من بيت المال ، وأنه توسع في بناء القصور وحرّم بعض الصحابة وضرب بعضهم على مشهد من الملأ ضرب إهانة وإيجاع

ولم تنقض سنوات على هذه الحال حتى كثّر المترفون

من جانب والمتربون من جانب آخر ، وشاع بين الجانبين ما يشيع دائماً في أمثال هذه الأحوال من الملاحاة والبغضاء والتزيد بالتهم واللجاجة ، وإضافة الأوهام إلى الحقائق في خلق ذرائع الخلاف والشحناء

وبدل على خطر مسألة الثروة في هذه الفتنة أن الناس تألبوا على الخليفة مرة فأرسل في طلب عليّ ليصرفهم عنه ، فلما تقدم إليه استأذنه في إعطائهم بعض الرغد العاجل من بيت المال ، فأذن له . فانصرفوا عن زعماء الفتنة وهدأوا إلى حين

ثم توافد المتذمرون من الولايات إلى المدينة مجندين وغير مجندين

وتولى زعامة المتذمرين في بعض الأحيان جماعة من أجراء الصحابة كتبوا صحيفة وقعوها وأشهدوا فيها المسلمين على ما أخذ الخليفة ، فلما حملها عمار بن ياسر إليه غضب وزيره مروان ابن الحكم وقال له : « إن هذا العبد الأسود قد جراً عليك الناس . وإنك إن قتلتته نكلت به من وراءه » فضربوه حتى غشى عليه

وكان بعض الوفود يشكون ولاتهم فإذا عادوا إلى بلادهم تلقاهم أولئك الولاة بالأذى وقتلوا بعضهم ضرباً على ملا من الشاكين الذين ينتظرون الإنصاف . فيعود المضروبون

إلى الشكوى وينصرهم أجلاء الصحابة عند الخليفة ويسألونه
أن يولى عليهم غير واليهم المسمى إليهم . فإذا توجه الولى
الجديد إلى مكانه إذا فى الطريق رسول يحمل خطاباً للولى
المعزول ، يأمره فيه بقتل من يفد إليه من حاملى الشكوى
وحاملى كتاب الولاية ، ويقره فى مكانه !

* * *

وظل الخليفة والثوار يشتبكون ويتمحزون لا هم فى
حرب ولا هم فى سلام . وكلما تحاجزوا بعد اشتباك منذر
بالشر زاد الخليفة ضعفاً وزاد الثوار ضراوة وزاد التوجس
بينهم استفحالا واتسع مع التوجس مجال السعاية والإرجاف
بين الفريقين حتى بلغ الكتاب أجله
وتوسط على بين الخليفة والثوار فاستمهلهم الخليفة
ثلاثة أيام يرد فيها المظالم ويعزل العمال المكروهين
وانقضت الأيام الثلاثة على غير جدوى
وتفاقت الفتنة وأحاط الثائرون ببيت عثمان لا يقنعون
فى هذه الكرة إلا أن يعتزل ، أو يسلمهم مروان بن الحكم ،
أو يعزلوه عنوة

وجاء فى رواية « شداد بن أوس » أن علياً رضى الله عنه
خرج من منزله يومئذ معتمداً بعمامة رسول الله متقلداً سيفه ،
أمامه الحسن وعبد الله بن عمر فى نفر من المهاجرين والأنصار

حتى حملوا على الناس وفرقوهم ثم دخلوا على الخليفة فسلم عليه
 على وقال بعد تمهيد وجيز : « . . . لا أرى القوم إلا قاتليك
 فرنا فلنقاتل » . فقال الخليفة : أنشد الله رجلا رأى لله حقاً
 وأقر أن لى عليه حقاً أن يهريق في سبني ملء محجمة من
 دم أو يهريق دمه في . فأعاد على القول فأعاد عليه هذا
 الجواب . ثم خرج من عنده إلى المسجد وحضرت الصلاة
 فنادوه : يا أبا الحسن . تقدم فصل بالناس . فقال : لا أصلى
 بكم والإمام محصور ، ولكني أصلى وحدي . ثم صلى وحده
 وانصرف إلى منزله ، وترك ابنه مع أبناء زمرة من الصحابة
 في حراسة دار الخليفة ، ليعلم الثوار أنهم معتدون على كل
 ذى خطر في الإسلام إن وصلوا إلى الخليفة باعتداء . عساهم
 إن علموا ذلك أن يتهيبوا المركب فلا ينزعوا بالشر غاية منزعه
 إلا أن الثوار علموا أنهم مأخوذون بالانتظار مغلوبون
 بالمطاوله ، فتسوروا الدار وولغوا في دم طهور لو هان على
 صاحبه أن تسفك الدماء في سبيله لغز عليهم أن يسفكوه

* * *

وللإفاضة في مقتل عثمان وعبرة هذا المقتل مكان غير
 هذا المكان وكتاب غير هذا الكتاب

فإنما نحن في صدد الموقف الذى وقفه على من هذه
 الجريمة وما ينم عليه هذا الموقف من خلقه ورأيه وسريره وجهره ،

ولأنما يعنيننا هنا أن نسأل : أكان عليه وزر في هذه الجريمة ؟
أكان في مقدوره عمل صالح يعمل به لإنقاذ عثمان من هذا
المصير ؟

فالحقيقة التي لا يطول فيها الريب أن علياً رضي الله عنه
لم يكن أقدر على اجتناب هذا المصير من معاوية أو من
عثمان نفسه ، لو شاء عثمان أن يستمع إلى بعض الناصحين إليه
فقد كان معاوية والياً عزيزاً له جند يرسله إلى الخليفة
فيحميه في الشدة اللازمة وإن أباه ، وكان لمعاوية قبول عند
عثمان لم يكن لعلّ ولا لأحد من خلصائه ، وكان هو أقمن
أن يميل بعثمان إلى الرضى بالحراسة أو الرضى بالرحلة إلى مكة
أو الشام ، لو أراد

وكان في وسع عثمان أن يرحل إلى مكة وهي آمن له
من المدينة ، أو يرحل إلى الشام وقد كانت مفتوحة له قبل
أن تغلقها الفتنة ويمرد الثوار على العصيان

أما عليّ فقد كان موقفه أصعب موقف يتخيّله العقل
في تلك الأزمة المحفوفة بالمصاعب من كل جانب
كان عليه أن يكبح الفرس عن الجراح ، وكان عليه
أن يرفع العقبات والحواجز من طريق الفرس كلما حيل بينها
وبين الانطلاق

كان ناقداً لسياسة عثمان وبطانته التي حجبتها عن قلوب

رعاياه ، ناصحاً للخليفة بإقصاء تلك البطانة وتبديل السياسة التي تزينها له وتغريه باتباعها وصم الآذان عن الناصحين له بالإقلاع عنها

وكان مع هذا أول من يطالب بالغوث كلما هجم الثوار على تلك البطانة وهموا بإقصائها عنوة من جوار الخليفة كان الثوار يحسبونه أول مشول عن السعي في الإصلاح ، وكان الخليفة يحسبه أول مشول عن تهدئة الحال وكف أيدي الثوار

ولم يكن في العالم الإسلامي كله رجل آخر يعانى مثل هذه المعضلة التي تلقاه من جانبيه كلما حاول الخلاص منها ، ولا خلاص !

ففي المؤتمر الذي جمعه الخليفة للتشاور في إصلاح الأمر وقمع الفتنة لم يكن على مدعوا ولا منظورا إليه بعين الثقة والمودة . بل كان المدعون إلى المؤتمر من أعدائه والكارهين لنصحه ، وهم معاوية وعمرو بن العاص وعبد الله بن أبي سرح وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص ، وهم في جملتهم أولئك الولاة الذين شكاهم على وجهرة الصحابة ، وبرمت بهم صدور المهاجرين والأنصار

قال لهم عثمان : « إن لكل امرئ وزراء ونصحاء وإنكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي . وقد صنع الناس ما قد رأيتم

وطلبوا إلى أن أعزل عمالي وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون . فاجتهدوا رأيكم وأشيروا على »

قال معاوية : « أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك على الكفاية لما قبلهم وأنا ضامن لك قبلي . »

رأى رجل يريد أن يحتفظ بولايته ولا يريد أن يغضب أحداً من أصحاب الولايات في غير مصره

وقال عبد الله بن عامر : « رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك وأن تجمهمهم في المغازي حتى يذلوا لك فلا يكون همهم أحدهم إلا نفسه . . . »

رأى رجل يريد أن يشغل الناس عن الشكوى ولا يريد أن يزيلها ، ثم هو لا يبالي أن يخلق جهاداً تسفك فيه الدماء في غير جهاد مطلوب

وقال عبد الله بن سعد : « أرى يا أمير المؤمنين أن الناس أهل طمع فأعطيهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم »

رأى رجل يشتري الرضى بالرشوة ، ويستبقى ما في يديه منها

وقال عمرو بن العاص وهو بين السخط على ولاية فاتها والطمع في ولاية يرجوها : « أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون فاعترزم أن تعدل فإن أبيت فاعترزم أن تعزل ، فإن أبيت فاعترزم عزماً وامض قدماً »

رأى رجل عينة على الخليفة وعينه على الثوار ، ولهذا

بقى حتى تفرق المجتمعون ثم قال للخليفة حيث لا يسمعه أحد غيره : « والله يا أمير المؤمنين لأنت أعز عليّ من ذلك . ولكنني قد علمت أن سيبلغ الناس قول كل رجل منا فأردت أن يبلغهم قولي فيثقوا بي فأقود إليك خيراً وأدفع عنك شراً ... »

وكان هؤلاء هم الوزراء والنصحاء وأهل الثقة عند عثمان ، ومن ورأيهم مروان بن الحكم يلزمه ويكفل لهم أن يحجب النصحاء عنه ، وفي مقدمتهم عليّ وإخوانه . ثم تفرق المؤتمرون وقد رد عثمان كل عامل إلى عمله ، وأمره بالتضييق على من قبله

فكانت حيلة عليّ في تلك المعضلة العصبية جد قليلة ، وكان الحول الذي في يديه أقل من الحيلة . إلا أنه مع هذا قد صنع غاية ما يصنعه رجل فعلق بالنقيضين ، معصوب بالتبعيتين ، مسئول عن الخليفة أمام الثوار ومسئول عن الثوار أمام الخليفة

جاءه الثوار مرة من مصر خاصة يتخطون الخليفة إليه ويعرضون الخلافة عليه ، فلقبهم أسوأ لقاء وأنذرهم لأن عادوا إليها ليكونن جزاؤهم عنده وعند الخليفة القائم جزاء العصاة المفسدين في الأرض

وجاءوا مرة أخرى وحجتهم ناهضة ، ودليل التهمة التي يتهمون بها بطانة عثمان في أيديهم : جاءوه بالخطاب الذي

وجدوه في طريق مصر مع غلام عثمان يأمر عامله بقتلهم بعد أن وعدهم خيراً وأجابهم إلى تولية العامل الذي يرضيهم . فلم تخذعه حجبتهم الناهضة ولم يشأ أن يعلى لهم في ثورتهم واحتجاجهم من جراء ذلك الخطاب المشكوك فيه ، وجعلهم متهمين مسئولين بعد أن كانوا متهمين سائلين فقال لهم : وما الذي جمعكم في طريق واحد وقد خرجتم من المدينة متفرقين كل منكم إلى وجهة ؟

وكانت حيرة على بين التقريب والإبعاد أشد من حيرته بين الخليفة والثوار . فكان يؤمر تارة بمبارحة المدينة ليكف الناس عن המתاف باسمه ، ويستدعى إليها تارة ليردع الناس عن مهاجمة الخليفة . فلما تكرر ذلك قال لابن عباس الذي حمل إليه رسالة عثمان بالخروج إلى ماله في ينبع : « يا ابن عباس . ما يريد عثمان إلا أن يجعلني جملًا ناضحاً بالغرب — أي الدلو — أقبل وأدبر : بعث إلى أن أخرج ، ثم بعث إلى أن أقدم ، ثم هو الآن يبعث إلى أن أخرج ، والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً »

ثم بلغ السيل الزبي ، كما قال عثمان رضي الله عنه ، فكتب إلى علي يذكر له ذلك ويقول : « إن أمر الناس ارتفع في شأني فوق قدره ، وزعموا أنهم لا يرجعون دون دمي وطمع في من لا يدفع عن نفسه

فإن كنتُ مأْكولاً فكن خيراً آكلي
« وإلا فأدركني ولما أُمزق ... »

فعاد علىَّ وجهه في إنقاذ الخليفة جهده ، ولكنه كان يعالج داء استعصى دواؤه وابتلى به أطباؤه . فكلهم يريد تغييراً يتأتى من قبل الغيب أو يأتي من قبل الآخرين ولا يغير شيئاً من عمله أو مستطاعه . ولعل الخليفة لو شرع في التغيير المرجو يومئذ لما أجدى عليه عظيم جدوى ، لفوات أوانه وانطلاق الفتنة من أعينها ، وامتناع التوفيق والصفاء بعد ما وقر في النفوس ولغطت به الأفواه .

وعد الخليفة وعده الأخير ليصلحن الأحوال ويبدلن العمال

وأحاطت به بظانته كدأبها في إثر كل وعد من هذه الوعود ، تنهاه أن ينجزه وتخيفه من طمع الناس فيه ، إن هو أنجز ما وعدهم حين توعدوه

وكانت المرأة أصدق نظراً من الرجال في هذه الغاشية التي تضل فيها العقول : فأشارت عليه امرأته السيدة نائلة باسترضاء علىَّ والإعراض عن هذه البطانة ، ولم يكن أيسر على بطانته من إقناعه بضعف هذا الرأي بعد سماعه من امرأة ضعيفة . فكان مروان يقول له : « والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها ... »

وكان هو يأذن له أن يخرج ليكلم الناس فلا يكلمهم إلا بالزجر والإصرار ، كما قال لهم يوماً : « ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب . شأنت الوجوه . . . جئت تريدون أن تنزعوا ملكنا . . . ارجعوا إلى منازلكم فإننا ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا »

إذن بطلت الرواية ولم يبق إلا لحظة طيش لا يدرى كيف تبدأ ، ولا يؤتى لأحد إذا هي بدأت أن يقف بها دون منهاها

هجم الثوار على باب الخليفة فنعهم الحسن بن علي وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وطائفة من أبناء الصحابة

واجتلدوا فنعهم عثمان وقال لهم : أنتم في حل من نصرتي ، وفتح الباب ليمنع الجلاد حوله . ثم قام رجل من أسلم يناشد عثمان أن يعتزل ، فرماه كثير بن الصلت الكندي بسهم فقتله ، فجند جنون الثوار يطلبون القتال من عثمان وعثمان يأبى أن يسلمه ويقول لهم : « لم أكن لأقتل رجلاً نصرني وأنتم تريدون قتلي . . . » وعز على الثوار أن يدخلوا من الباب الذي كان قد أغلق بعد فتحه ، فاقتحموا الدار من الدور التي حولها . وأقدموا على فعلتهم النكراء بعد إحجام كثير

ونقل الخبر إلى المسجد وفيه علي جالس في نحو عشرة

من المصلين فراعه منظر القادم وسأله : ويحك ما وراءك ؟ ...
 قال والله قد فرغ من الرجل . فصاح به : تباً لكم آخر الدهر ،
 وأسرع إلى دار الخليفة المقتول . فلطم الحسن وضرب الحسين
 وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وجعل يسأل ولديه :
 كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب ؟ فأجاب طلحة :
 « لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن ، لو دفع مروان
 ما قتل »

* * *

قال سيف بن عمر عن جماعة من شيوخه : « بقيت
 المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان وأميرها الغافقي بن حرب
 يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر ، والمصريون يلحون على
 عليّ وهو يهرب إلى الحيطان ^(١) ، ويطلب الكوفيون الزبير
 فلا يجدونه ، والبصريون يطلبون طلحة فلا يجيبهم ، فقالوا
 فيما بينهم : لا نولى أحداً من هؤلاء الثلاثة . ففضوا إلى سعد
 ابن أبي وقاص فقالوا : إنك من أهل الشورى . فلم يقبل منهم ،
 ثم راحوا إلى ابن عمر فأبى عليهم ، فحاروا في أمرهم . ثم
 قالوا : إن نحن رجعنا إلى أمصارنا بقتل عثمان من غير
 إمرة اختلف الناس في أمرهم ولم نسلم ، فرجعوا إلى عليّ
 فألحوا عليه ، وأخذ الأشر بيده فباعه وباعه الناس ...

وكلهم يقول : « لا يصلح لها إلا عليّ . فلما كان يوم الجمعة وصعد على المنبر بايعه من لم يبايعه بالأمس وكان أول من بايعه طلحة بيده السلاء ، فقال قائل : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم الزبير ، ثم قال الزبير : إنما بايعت علياً والليج على عني والسلام . . . »

وهذا الخبر على وجازته قد حصر لنا أسماء جميع المرشحين للخلافة بالمدينة عند مقتل عثمان ، وربما كان أشدهم طلباً لها طلحة والزبير اللذان أعلننا الحرب على عليّ بعد ذلك ، فقد كانا يمهدان لها في حياة عثمان ويحسان أن قريشاً قد أجمعت أمرها ألا يتولاها هاشمي ، وأن علياً وشيك أن يذاد عنها بعد عثمان كما ذيد عنها من قبله ، وكانت السيدة عائشة تؤثر أن تؤول الخلافة إلى واحد من هذين ، أو إلى عبد الله بن الزبير ، لأن طلحة من قبيلة تيم والزبير زوج أختها أسماء ، وفي تأييد السيدة عائشة لواحد منهم مدعاة أمل كبير في النجاح

على أن الرأي هنا لم يكن رأى قريش ولا رأى بني

هاشم

فلو أن عثمان مات حتف أنفه ولم يذهب ضحية هذه الثورة لحاز أن تجتمع قريش فتعقد البيعة لخليفة غير علي ابن أبي طالب ، وجاز أن يختلف بنو هاشم فلا يجتمع

لهم رأى على رجل من رجالهم الثلاثة المرشحين للخلافة وهم
عقيل وعلى وابن عباس

ولكنها الثورة الاجتماعية التي تنشأ رجلها دون غيره
ولا محيد لها عنه ، فإن ترددت أياماً فذاك هو التردد العارض
الذي يرد على الخاطر لا نحالة قبل التوافق على رأى جازم .
ثم لا معدل للثورة عن الرجل الذي تنجبه إليه وحده على
الرغم منها .

فلم تكن المسألة خلافاً بين على ومعاوية على شىء
واحد ينحسم فيه النزاع بانتصار هذا أو ذاك .

ولكنها كانت خلافاً بين نظامين متقابلين وعالمين
متنافسين : أحدهما يتمرد ولا يستقر ، والآخر يقبل الحكومة
كما استجدت ويميل فيها إلى البقاء والاستقرار .

أو هنى كانت صراعاً بين الخلافة الدينية كما تمثلت
في على بن أبي طالب ، والدولة الدنيوية كما تمثلت في معاوية
ابن أبي سفيان

هذه هي العلة الكبرى التي تنطوى فيها جميع العلل الظاهرة
وخلق بكل علة أخرى أن تكون تعلقة موضوعة يستر
صاحبها غير ما يبطن ، أو ينخدع في زعمه وهو غافل
عن معناه .

خذ لذلك مثلاً علة طلحة وأصحابه الذين ثاروا على على .

ليطلبوه بدم عثمان ، وهم لم يدافعوا عنه في حياته بعض ما دفع على عنه . وقد كان عثمان كثيراً ما يقول : « ويلي من طلحة . أعطيته كذا وكذا ذهباً وهو يروم دمي . . . اللهم لا تمتعه به ولقه عواقب بغيه » . . . وساء ظن الناس بنقمة طلحة على عثمان حتى حدث بعضهم أنه رآه يوم مقتله يرمى الدار ويقود بعض الثائرين إلى الدور المجاورة ليهبطوا منها إلى دار عثمان ، وهو حديث يفتقر إلى السند الوثيق ، ولكنه ينم على ظن الناس بصداقة طلحة للخليفة المقتول

ونخذ لذلك مثلاً حجة معاوية حين علل ثورته باتهام على في دم عثمان وعلل اتهامه لعل بتقصيره في القود من الثائرين ، وهم ألوف يحملون السلاح وهو لم يسكن بعد إلى سلطان يعينه على القود من هؤلاء الألوف المسلحين . فهاذا صنع معاوية بقاتلي عثمان حين صار الملك إليه ووجب عليه أن ينفذ العقاب الذي من أجله ثار واستباح القتال ؟ إنه اتبع علياً فيما صنع وأبى أن يذكر الثأر المقيم المقعد وقد ذكروه به وألحفوا في تذكيره . ولقد كان أول ما سمعه يوم زار المدينة ودخل بيت عثمان صبيحة عائشة بنته وهي تبكي : وأبناه . فلم تزده هذه الصبيحة المثيرة إلا إصراراً على الإغضاء والإعفاء . وقتل لها يعزيها : « يا ابنة أخي . إن الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أماناً ، وأظهرنا لهم حلماً تحت غضب ،

وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد ، ومع كل إنسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره . فإن نكثنا بهم نكثوا بنا ولا ندرى أعليتنا نكون أم لنا . ولأن تكوفى بنت عم أمير المؤمنين خير من أن تكوفى امرأة من عرض المسلمين . . . »

أؤخذ لذلك مثلاً علة عمرو بن العاص وقد كان أول الناصحين لعثمان بالاعتزال ، بل كان يخطب لعثمان ليسترضى الناس وعمرو يصيح به من صفوف المسجد : « اتق الله يا عثمان فإنك قد ركبت أموراً وركبناها معك . فتب إلى الله نتب . . . » ثم ترك عثمان في المدينة بين المؤتمرين به ومضى إلى فلسطين وسمع وهو يقول : « والله إنى كنت لألقى الراعى فأحرضه على عثمان »

فكل علة للثورة على خلافة على فهي تعلل موضوع يتخذه به قائله أو يتخذ به غيره . إلا تلك العلة التي طوت فيها جميع العلل ظاهرها وخافيتها وصريحها ومكذوبها ، وهي الخلاف بين مبادئ الخلافة الدينية ومبادئ الدولة الدنيوية ، وضرورة الفصل بين هاتين الخطتين وإن كان في ظاهره فصلاً بين رجلين

واتبع على من اليوم الأول في خلافته أحسن السياسات التي كان له أن يتبعها ، فمن اللحظة الأولى أخذ في تجنيد بني الخلافة الدينية التي لا قوة له بغيرها

ف عزل الولاية الذين استباحوا الغنائم المحظورة وتمرغوا
بالدنيا وطمعوا وأطمعوا رعاياهم في بيت مال المسلمين :
وأثاروا على عثمان سخط السواد وسخط الفقهاء المتحرجين
والحفاظ الغير على فضائل الدين

ورد القطائع التي وزعتها بطانة عثمان بين المقربين
وذوى الرحم ، فصرفها عن وجوهها التي جعلت لها من
إصلاح المرافق وإغاثة المفتقرين إليها على شرعة الإنصاف
والمساواة

ورجع إلى خطة أبي بكر وعمر في تجنب الصحابة
الطامحين إلى الإمارة فتنة الولايات ، مخافة عليهم من غوايتها
وإبعاداً لهم من دسائس الشيع والعصبيات . فلما طالبه طلحة
والزبير بولاية العراق واليمن قال لهما : بل تبقيان معي لأنس
بكما ، وسأل ابن عباس : ما ترى ؟ فأشار بتولية الزبير
البصرة وتولية طلحة الكوفة . قال علي : ويحك . « إن العراقيين
بهما الرجال والأموال . . . ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان
السفيه بالطمع ، ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان
على القوى بالسلطان ، ولو كنت مستعملاً أحداً لضرة
أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام ، ولولا ما ظهر من
حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأى »

نعم إن هذه السياسة أغضبت منافسيه وطالبي المنفعة

الديوية على يديه ، ولكن السياسة الأخرى كانت تغضب أنصاره ولا تضمن له رضى المنافسين ودوامهم على الرضى والوافق بينهم فى تأييده

ولم تمض أيام معدودة على مبايعة الخليفة الجديد حتى انتظمت صفوف الحجاز كله له أو عليه . فكان معه جميع الشاكين لأسباب دينية أو دنيوية ، وكان عليه جميع الولاة الذين انتفعوا فى عهد عثمان ، وجميع الطامعين فى الانتفاع بالولاية والأموال العامة وحالت . الخلافة الجديدة بينهم وبين ما طمعوا فيه وعلى رأس هؤلاء طلحة والزبير

فحشدوا جموعهم إلى البصرة وصحبهم السيدة عائشة لأنها كانت ترغب فى خلافة طلحة . لقيها ابن عباس على مقربة من المدينة وهو أمير على الحج من قبل عثمان ولما يزل قائماً بالخلافة ، فقالت له : يا ابن عباس . أنشد الله فإنك قد أعطيت لساناً لإزعيلاً — أى ماضياً — أن تخذل عن هذا الرجل — تعنى عثمان — وأن تشكك فيه الناس . فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ورفعت لهم المنار ، وتحلبوا من البلدان لأمر قد جم . وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح . فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبى بكر رضى الله عنه . فأجابها ابن عباس : يا أمه ! لو حدث ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا — أى على — ...

فقلت : إيهـآ عنك . إني لست أريد مكابرتك ولا مجادلـتك .

فلما بـويع عليّ في المدينة لم تكن من أنصاره ولا مع الباقيـن على الحيدة بيـنه وبين خصومه ، ولعلها لم تنس بعد نصيحـته للنبي عليه السلام في مسألة الإفك التي قيل إنه أشار فيها بتطليـقها ، فخرجت إلى البصرة مع المطالبين بـثأر عثمان ، وكانت هنالك وقعة الحمل التي سميت بهذا الاسم لاحتدام القتال فيها حول جملها ويهودجها . فانتصر عليّ وقتل الزبير ومات طلحة بجرح أصابه في المعركة ، وحسم القتال بالصلح بين الفريقين في الحجاز والعراق

على أن هذا النصر العاجل لم يخل من آفة تكدره وتنذر بالمخاوف التي يوشك أن يلـقها عليّ في حربه لخصومه الباقيـن بعد موت طلحة والزبير وأقواهم معاوية بن أبي سفيان صاحب الشام

فقد كشفت وقعة الحمل عن مصاعب القيادة في جيش من المتمردين والمتدمرين . فإنهم يستحمسون في عقيدتهم وهي فضيلة من فضائل الجيوش المقاتلة ، ولكنهم من جراء هذه الحماسة نفسها عرضة للعناد والتمادي في اللدد وإعجال قائدهم عن إنعام الروية وانتظار الفرص المؤاتية

فقد كان عليّ يميل — كدأبه — إلى مفاتحة الخارجيين عليه في المهادنة أو المصالحة ، وكان معه جماعة السبئية

— أتباع عبد الله بن سبأ — وهم أخلص الناس له وأغيرهم عليه ، ولكنهم لفرط غيرتهم ولددهم في عداوتهم لم يقنعوا بما دون القضاء على خصومه ، ولم يقبلوا التوسط في الصلح دون الغلبة التي لا هوادة فيها . فدهموا القوم وأوقدوا جذوة الحرب قبل أن يفرغ على من حديث المهادنة والتقريب بينه وبين أصدقائه الذين نخرجوا عليه

وكانت هذه أولى العثرات الكبار التي أعثرته بها حماسة المتمردين والمتذمرين في جيشه ، ولم تزل تتعاقب وتتفاقم عليه حتى منى بالعثرة التي لا تقال ، وكان ذلك في وقعة صفين فإنه نظر بعد غلبته في العراق فلم يجد أمامه خصما يقف في طريق الخلافة إلا جيش معاوية بالشام ، فعمد معه إلى خطته التي جرى عليها مع خصومه كافة حيث كانوا وكانت منزلتهم من الجاه والقوة ، ونعنى بها خطة المسالمة والبدء بالإقناع ، فطالت المراسلة منه إلى معاوية ومن معاوية إليه ، وفي مثل واحد منها ما يغنى عن كثير

كتب إلى معاوية بعد وقعة الجمل وقد سبقته كتب كثيرة من المدينة :

« سلام عليك . أما بعد فإن بيعتي بالمدينة لزمك وأنت بالشام ، لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بوعوا عليه . فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن

يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضى وإن خرج عن أمرهم ردوه إلى ما خرج عنه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً . وإن طلحة والزبير بايعانى ثم نقضا بيعتهما ، وكان نقضهما كردهما ، فجاهدتهما بعد ما أعذرت إليهما ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله ، وهم كارهون . فادخل فما دخل فيه المسلمون فإن أحب الأمور إلى قبلك العافية ، وقد أكثرت فى قتلة عثمان ، فإن رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فما دخل فيه المسلمون ثم حاكت القوم إلى حملتك وإياهم على كتاب الله . وأما تلك التى تريدها - يعنى الخلافة - فهى خدعة الصبى عن اللبن . ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدننى أبرأ قريش من دم عثمان ، واعلم أنك من الطلقاء^(١) الذين لا تحل لهم الخلافة ولا يدخلون فى الشورى ، وقد بعثت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله وهو من أهل الإيمان والهجرة ، فبايعه ، ولا قوة إلا بالله » فرد عليه معاوية بما يلي :

« سلام عليك . أما بعد فلعمري لو بايعك الذين ذكرت وأنت برىء من دم عثمان لكنت كأبى بكر وعمر

(١) أطلق معاوية وأبوه من الأسر يوم فتح مكة

رعثمان . ولكنك أغريت بدم عثمان وخذلت الأنصار فأطاعك
الجاهل وقوى بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك
حتى تدفع إليهم قتلة عثمان . فإن فعلت كانت شورى بين
المسلمين . وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق
فيهم ، فلما فارقه كان الحكام على الناس أهل الشام ، ولعمري
ما حاجتك على أهل الشام كحجتك على طاحنة والزبير ،
إن كانا بايعاك فلم أبايعلك أنا . فأما فضلك في الإسلام وقربتك
من رسول الله صلى الله عليه وسلم فاست أدفعه . . . »

ومن رد معاوية هذا تبدو النية الواضحة في فتح أبواب
الخلاف واحداً بعد واحد ، كلما أغلق باب منها بقى من ورائه
باب مفتوح لا ينتهى الخلاف بإغلاقه ، فتسليم قتلة عثمان
لا يكفي ، لأن علياً نفسه متهم بالإغراء والتخذيل ، وبراءة على
من هذه التهمة لا تكفى ، لأن المرجع بعد ذلك إلى الشورى
والنظر في البيعة من جديد . وشورى الحجازيين والعراقيين
لا تكفى ، لأن الحق قد خرج منهم إلى أهل الشام ، وهم الحكام
على الناس . . . لأنهم يحكمون لمعاوية ولا يحكمون لغيره ،
ومن ثم بطلت الحجج والرسائل كما تبطل كل حجة وكل رسالة
عندما يقال باللسان غير ما يجول في الصدور

وزحف على من الكوفة إلى صفين ، ووجد جيش معاوية
على الماء فنحاه عنه بعد أن أبى عليه معاوية أن ينحيه بغير قتال

وبدأت العثرات من ثم في كل خطوة يخطوها للسلام أو للقتال . فلا يتحفز فريق من أنصاره للحرب حتى يشيه فريق آخر يجرمها ولا يقول بوجوبها ، وتحاجز القوم نيفاً وثمانين فرقة . وتصاولوا في وقعات شتى غامرت بها طائفة من وطائفة من هنا ، وقلما اشتبك فيها الجيشان في جامعة حتى كانت وقعة الهرير وحاقت الهزيمة بجيش معاوية وقيل إنه هم بالفرار ، وإذا بالمصاحف ترفع على الحراب من قبل جيش الشام ، وإذا بالعثرة الكبرى التي لا خطوة بعدها في طريق فلاح . فإن علياً نظر حوله فإذا بجيشه يوشك أن يقتل فما بينه نزاعاً على القتال أو إلقاء السلاح ، وأن معاوية لى غنى عن كفاح قوم لا يتفقون على كفاحه . فله منهم سيوف ورماح مشرعة لنصره شاءوا أو لم يشاءوا وسيكفونه مؤنة الحرب حتى يتفقوا بينهم على حربه ، وهيئات !

* * *

ولو كانت آفة الطاعة في جيش على مقصورة على اجتهاد القراء والحفاظ وتعجل الغلاة والمتمردين لكان في ذلك وحده ما يكفي لإفساد التدبير واضطراب القيادة وتعذر القتال على أصوله . إذ لا يستغنى القائد في ميدان الحرب ولا في ميدان السياسة عن الكتمان والمفاجأة وتحويل الخطط على حسب الطوارق والمناسبات . فإذا كان في كل عمل من أعماله عرضة

لاجتهاد أصحاب الفتاوى ، وكان أصحاب الفتاوى يفترون عشرين وجهة في كل حركة من حركات الجيش ، فليست له خطة تكتم ولا خطة تنفذ . وليس عجيباً بعد ذلك أن يهزم في ميدان القتال شر هزيمة يبتلى بها مقاتل

ولكن الآفة مع هذا لم تكن كلها في اجتهاد الحفاظ وتعجل الغلاة . بل كان في الجيش أناس يخونون عهده ويشغبون عليه ويبدو من أعمالهم أنهم مسخرون لعدوه كارهون لانتصاره ، فإن لم يكونوا كذلك فالأمر الذي لا شك فيه أنهم كانوا يعملون وهم عامدون وغير عامدين شر ما يعمله الخائن الخبيث الذي يتحين الفرص للعناد والشقاق وإفشاء الخلل والخذلان في أخرج الأوقات

وأدهى من ذلك أنه لم يكن قادراً على زجرهم والتنكيل بهم ، لأن الجيش الذي يوجد فيه من يحرم حرب العدو لن يعدم أناساً يحرمون حرب النصير المقيم على ظاهر الطاعة ، وليس لك بينة قاطعة عليه

ومثل من ذلك أيضاً يغنى عن أمثال كثيرة ، وهو مثل الأشعث بن قيس أكبر سادات كندة وأخلقهم أن ينصر حزباً على حزب لو خلصت نيته وبرئت شيمته من التقلب والغدر بأصحابه

طمح هذا الرجل إلى الملك بعد موت النبي عليه السلام ،

فدعا قومه أن يتوجوه وحارب المسلمين مع المرتدين حتى حوَّصر في حصنه أياماً ويئس من الغلبة فاستسلم على أن يصابن دمه ودم عشرة من أخصائه، ثم فتح الحصن فقتل كل من فيه ونجا بالعشرة الذين اختارهم إلى أبي بكر رضى الله عنه ، فقبل توبته وزوجه أخته أم فروة . فاما نشبت الفتنة بين عليّ ومعاوية كان هو من حزب عليّ يتطلع للفرصة السانحة ثم زحف عليّ رضى الله عنه إلى صفين فكان الأشعث أول المندفعين إلى القتال حين سد أهل الشام طريق الماء . وجاء عليّاً يقول : « يا أمير المؤمنين ؛ أيمنعنا القوم الماء وأنت فينا ومعنا سيوفنا ؟ ولئن الزحف إليه فوالله لا أرجع أو أموت » ، ولكنه عاد إلى المسألة بعد أن وضح النصر في ليلة الهرب فخطب في قومه من كندة قائلاً :

« . . . قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي ، وما قد فني فيه من العرب ، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ فما رأيتم مثل هذا اليوم قط . ألا فليبلغ الشاهد الغائب أنا إن توافقنا غداً إنه لفنيت العرب وضيعت الحرمات . أما والله ما أقول هذه المقالة جزعاً من الحرب ولكني رجل مسن أخاف على النساء والذراري غداً إذا فنينا »

ثم ذهب إلى عليّ رضى الله عنه بعد رفع المصاحف

قال له : « ما أرى الناس إلا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم
إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن . فإن شئت ، أتيت معاوية
فأسأله ما يريد فنظرت ما يسأل »

ولقي معاوية فسأله : يا معاوية ! لأى شىء رفعتم هذه
المصاحف ؟

قال : « لنرجع نحن وأنتم إلى أمر الله عز وجل فى
كتابه . تبعثون منكم رجلا ترضون به ونبعث منا رجلا
ثم نأخذ عليهما أن يعملأ بما فى كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع
إما اتفقا عليه »

فقال الأشعث : هذا الحق ! وعاد إلى علىّ ينادى
بالتحكيم ويختار له هو وأنصاره رجلا ينوب عن علىّ ، وعلىّ
لا يرضاه . وكان أنصار التحكيم قد تكاثروا واجترأوا على أمير
المؤمنين فلم يبالوا أن يجبهوه بالقول السيئ من موعدين :

« يا على ! أجب إلى كتاب الله عز وجل إذ دعيت إليه ،
وإلا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان .
إنه عرض علينا أن نعمل بما فى كتاب الله عز وجل فقبلناه .
والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك »

وألحوا عليه أن يرد قائده الأشتر النخعى من ساحة الحرب ،
وإلا اعتزلوه أو قتلوه . فقبل التحكيم وهو كاره ، واختار أهل الشام
عمرو بن العاص فقال الأشعث : فإننا قد رضينا بأبى موسى الأشعرى

قال عليّ : إنه ليس لي بثقة . قد فارقتني وخذل الناس عني ، ثم هرب مني حتى آمنت به بعد أشهر . ولكن هذا ابن عباس نوليّه ذلك

قالوا : لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء ليس إلى واحد منكما بأدنى إلى الآخر

قال : فإني أجعل الأشر

قال الأشعث وهو بنفس عليّ الأشر مكانته وبلا من قبل : وهل سعر الأرض غير الأشر ؟ أو قال : وهل نحن إلا في حكم الأشر ؟

فلما رأى إصرارهم وقلة أنصاره عليّ رأيه بينهم قال : فقد أبيتم إلا أبا موسى ؟ قالوا : نعم ! قال : فاصنعوا ما بدا لكم ! ...

* * *

فهذا رجل من الزعماء المطاعين في جيش عليّ لم يدع من وسعه شيئاً لتغليب حزب معاوية على حزبه ، واستكثر عليه أن يكون الحكم الذي يختاره نصيراً له مؤمناً بحقه وصحة رأيه . ولا طائل في البحث عن هذا الخذلان الصريح أكان هو الطمع في الملك بعد فشل عليّ أم النقمة على الأشر النخعي في مكانته وبلائه أم التواطؤ بينه وبين معاوية على منفعة مؤجلة ومكافأة موعودة ؟ فإنما النية الخبيثة ظاهرة وإن استترت العلة ، وأياً كانت العلة الخفية فقد صنع الرجل

غاية ما استطاع لتغليب حزب معاوية ونخلان الحزب الذى هو فيه

قال على^١ يصف قسمته من الأنصار وقسمته من النوازل والعثرات : « لو أحبنى جبل لتهافت » . وقال يصف أنصاره : « أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم ، كلامكم يوهى الصم الصلاب وفعلكم يطمع فيكم الأعداء . . . ما عزت دعوة من دعاكم ولا استراح قلب من قاساكم . أعاليل بأضاليل دفاع ذى الدين المطول . . . أى دار بعد داركم تمنعون ؟ ومع أى إمام بعدى تقاتلون ؟ ! المغرور والله من غرتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب ، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل^(١) ، أصبحت والله لا أصدق قولكم ولا أطمع فى نصركم ، ولا أوعد العدو بكم ، ما بالكم ؟ ما دواؤكم ؟ ما طبكم ؟ القوم رجال أمثالكم ، أقولا بغير علم ؟ وغفلة من غير ورع ؟ وطمعاً فى غير حق »

. ثم اجتمع الحكمان بدومة الجندل التى وقع عليها الاختيار لتكون وسطاً بين العراق والشام ، ولم يكن قرار الحكمين خافياً على من عرفوا أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص . فإن أبا موسى لم يكتف قط أن السلامة فى اجتناب الفريقين والقعود عن القتال . فليس أيسر من إقناعه بخلع صاحبه وخلع

(١) الأفوق هو السهم المكسور فى موضع الوتر والتاصل العارى من النصل

معاوية على السواء . ثم يرجع الرأي إلى عمرو بن العاص في إقرار هذا الخلع أو الاحتفال فيه بالحيلة التي ترضيه

إلا أن الدهاة من العرب كانوا يتوقعون من عمرو بن العاص أن يحتال لنفسه حتى يفرغ وسعه قبل أن يحتال لصاحبه الذي أنابه عنه . ومن هؤلاء الدهاة المغيرة بن شعبة الذي اعتزل الفريقيين من مطلع الفتنة إلى يوم التحكيم . فلما اجتمع الحكمان علم أنها الجولة الأخيرة في الصراع فخرج عن عزلته ودنا ليستطلع الأمور على سنة الدهاة من أمثاله ، إذ يتنسمون الريح قبل هبوبها ولا يقلقون أنفسهم بمهبها قبل أوانها . فلقى أبا موسى وعمرو بن العاص ثم ذهب إلى معاوية وهو مشغول البال بطول الاجتماع بين الحكيمين واضطراب الظنون في وراء هذا الإبطاء المريب . فقال له وهو يرى اشتغال باله قد أتيتك بخير الرجلين قال معاوية : وما خبرهما ؟

قال المغيرة : إني خلوت بأبي موسى لأبلو ما عنده ، فقلت : ما تقول فيمن اعتزل عن هذا وجلس في بيته كراهية للدماء ؟ فقال : أولئك خيار الناس ، خفت ظهورهم من دماء إخوانهم وبطونهم من أموالهم . فخرجت من عنده وأتيت عمرو بن العاص فقلت : يا أبا عبد الله ما تقول فيمن اعتزل هذه الحروب ؟ فقال أولئك شرار الناس لم يعرفوا حقاً وإنما ينكروا باطلا

ثم عقب المغيرة قائلا : أنا أحسب أبا موسى خالعاً صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد ، وأحسب هواه في عبد الله بن عمرو بن الخطاب ، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذي عرفته ، وأحسبه سيطاها لنفسه أو لابنه عبد الله ، ولا أراه يظن أنك أحق بهذا الأمر منه

وقد أحسن المغيرة حزره نقل الحرف بالحرف في تقدير نية الرجلين ، فلنهما ما اجتمعا هنية حتى أقبل أبو موسى على عمرو يقول له : يا عمرو ؟ هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورضا الله ؟

قال : وما هو ؟ قال : نولي عبد الله بن عمر فإنه لم يدخل نفسه في شيء من هذه الحروب .

فراغ عمرو قليلا يحاول أن يلتقي في روع صاحبه أنه يريد معاوية ، ثم عاد يسأله : فما يمنعك من ابني عبد الله مع فضله وصلاحه وقديم هجرته وصحبته ؟ فأوشك أبو موسى أن يجيبه لولا أنه قال : إن ابنك رجل صدق ولكنك غمسته في هذه الحروب غمسا . . .

وتكرر بينهما هذا القول وأشباهه في كل لقاء ، وطفقا يبدئان منه ويعيدان إليه بعد كل جدال ، حتى وقر في خلد الأشعرى أن خلع الزعيمين أمر لا مناص منه ولا اتفاق بينهما على غيره . فتواعدا إلى يوم يعلنان فيه هذا القرار

وتقدم أبو موسى فقال بعد تمهيد : « ... أيها الناس .
 إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم
 لشعبها من أمر قد أجمع رأي ورأي عمرو عليه ، وهو أن
 نخلع علياً ومعاوية ، ونستقبل الأمة بهذا الأمر فيولوا منهم
 من أحبوا عليهم ، وإني قد خلعت علياً ومعاوية . فاستقبلوا
 أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً »

وتلاه عمرو فقال بعد تمهيد : « ... إن هذا قال
 ما سمعتم وخلع صاحبه وأنا أنخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت
 صاحبي معاوية ، فإنه ولي عثمان بن عفان رضى الله عنه
 والطلب بدمه وأحق الناس بمقامه »

فغضب أبو موسى وصاح به : ما لك لا وفقك الله . غدرت
 وفجرت ، إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو
 تركه يلهث .

فابتسم عمرو وهو يقول : « إنما مثلك كمثل الحمار يحمل
 أسفراً ... »

كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضبين ، وهما
 يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه

وانتهت المأساة بهذه المهزلة ، أو انتهت المهزلة بهذه المأساة
 وبأن اجتماع الحكيم لم يفض إلى اتفاق بين الحكيم ،
 فعاد الخلاف إلى ما كان عليه ، إلا أنه استشرى واحتدم بعد

قصة الحكمين بما زاد عليه من فتنة الخوارج المنكرين
للتحكيم

فقد اجتمعوا وأبرموا فيما بينهم « . . . أن هذين الحكمين
قد حكما بغير ما أنزل الله وقد كفر إخواننا حين رضوا بهما
وحكموا الرجل في دينهم ونحن على الشخوص من بين أظهروهم ،
وقد أصبحنا والحمد لله ونحن على الحق من بين هذا الخلق »
وخرجوا وعلى " يأتى قتالهم حتى ييأس من توبتهم ، ولقيهم
بالجيش فأثير أن يأنفاهم مناقشاً قبل أن يلقاهم مقاتلاً ،
واقترح عليهم أن يخرجوا إليه رجلاً منهم يرضونه ليسأله ويحبيه
ويتوب إن لزمته الحجة ويتوبوا إن لزمهم . فأخرجوا إليه
إمامهم عبد الله بن الكواء

قال عليّ : ما الذى نقيم على بعد ضاكم بولايته
وجهادكم معى وطاعتكم لى فهلا برئتم منى يوم الحمل ؟

قال ابن الكواء : لم يكن هناك تحكيم
قال عليّ : يا ابن الكواء ويحك . أنا أهدى أم رسول الله
صلى الله عليه وسلم ؟ قال ابن الكواء : بل رسول الله صلى الله
عليه وسلم

قال عليّ : فما سمعت قول الله عز وجل : « قل تعالوا
ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم » أكان
الله يشك أنهم هم الكاذبون ؟ قال : إن ذلك احتجاج

عليهم ، وأنت شككت في نفسك حين رضيت بالحكمين فنحن
أحرى أن نشك فيك

قال : وإن الله تعالى يقول : « فأتوا بكتاب من عند الله
هو أهدي منهما أتبعه »

قال ابن الكواء : ذلك أيضاً احتجاج منه عليهم . ثم
قال بعد كلام طويل من قبيل كلامه هذا : « إنك صادق
في جميع قولك غير أنك كفرت حين حكمت الحكمين »

قال علي : ويحك يا ابن الكواء . إني إنما حكمت أبا موسى
وحكم معاوية عمراً

قال ابن الكواء : فإن أبا موسى كان كافراً

قال علي : متى كفر ؟ أحين بعثته أم حين حكم ؟

قال ابن الكواء : بل حين حكم

قال علي : أفلا ترى أنني إنما بعثته مسلماً فكفر في
قولك بعد أن بعثته . . . أرايت لو أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم بعث رجلاً من المسلمين إلى ناس من الكافرين
ليدعوهم إلى الله ^(١) فدعاهم إلى غيره هل كان على رسول الله
صلى الله عليه وسلم من ذلك شيء ؟

قال : لا

(١) وقد حدث هذا في عهد النبي عليه السلام إذ أوفد نهاراً إلى الرحا
ليهدى قوم مسيئة فانقلب هنالك مبشراً بدينه

قال: ويحك . فما كان على أن ضل أبو موسى ؟ أفيجل لكم بضلالة أبي موسى أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم فتعرضوا بها الناس ؟

فعلم الخوارج أن صاحبهم ليس بند لعلّ في مجال نقاش ، فكفوه عن الكلام كأنهم آمنوا بصدق عليّ في حجته وقصده ، لولا أنهم قوم قهرهم الحاجة العناد كما تقهر أمثالهم من المهوسين الذين يجدون في الماضي مع العناد لذة لا يستمرونها من الحق والمعرفة . فردوا على الشقاق وأصروا على تكفير عليّ وأصحابه وأن يعاملوهم في الحرب والسلم معاملة الكفار

واستبقى عليّ بعد هذا كله بقية للسلم والمراجعة . فرفع في الساحة راية ضم إليها ألقى رجل ونادى : من التجأ إلى هذه الراية فهو آمن

ثم قال لأصحابه : لا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم . فصاح الخوارج صيحتهم : « لا حكم إلا لله وإن كره المشركون » وهجموا هجمة رجل واحد . وتلقاهم عليّ وأصحابه لقاء من نفذ صبره ووغر صدره . فما هي إلا ساعة حتى قتل معظم الخوارج وبقي منهم نحو أربعمائة أصيبوا بجراح وغجزوا عن القتال ، فأمر بهم عليّ فحملوا إلى عشائرهم لينظروا من فيه رمق فيدركوه بعلاج

وأراد المسير إلى الشام ليلقى بها جيش معاوية

فتصدى له الأشعث بن قيس مرة أخرى كما تصدى له في كل فرصة سانحة للغلبة ، وقال له على مسمع من الناس : يا أمير المؤمنين . نفذت نبأنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا ، فارجع بنا إلى مقرنا لنستعد بأحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عادة من هلك منا ، فإنه أوفى لنا على عدونا

وتسلل الجند من معسكرهم ، ولاذ من لاذ بالمدن القريبة منهم ، وأيقن على أن القوم مارقون من يده ، ولا طاعة له عليهم إذا دعاهم بعدها لقتال

أما معاوية فقد علا نجمه بين قومه ، وأعانه طلاب المنافع عامدين ، وأعانه الخوارج غير عامدين ، فحاربوا علياً ولم يحاربوه ، وطلبوا التوبة من علي ولم يطلبوها منه ، واستمر هو في إنفاذ البعث والسرايا إلى كل موضع آتس منه غرة وظن بزعمائه موجدة أو سامة . فلم تنقض سستان حتى كانت معه مصر والمدينة ومكة ، وبقي علي في أرباض الكوفة يائساً منعزلاً عن الناس ، يتمنى الموت كما قال في بعض خطبه ، ويوجس شراً من أقرب المقربين إليه ، وانتهى بقبول المهادنة بينه وبين معاوية على أن تكون له العراق ولعواوية الشام ، ويكفها السيف عن هذه الأمة ، فلا نزاع ولا قتال

* * *

وبقيت في كثانة الأقدار مصادفة من هذه المصادفات التي يخيل إليك وأنت تتعقبها أنها تجمعت منذ الأبد لیبوء على بنقائض الموقف كله ويظفر خصومه بتوقيقات الموقف كله ؛ فشاءت هذه المصادفة الأخيرة أن يتفق ثلاثة ، على قتل ثلاثة ، فيذهب هو وحده ضحية هذه المكيدة العاجلة ، ويفلت زميلاه فيها : معاوية وعمرو بن العاص

* * *

اجتمع عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو ابن بكر التميمي وهم من غلاة الخوارج الموتورين ، فتذاكروا القتل من رفاقهم وتذاكروا القتل من المسلمين عامة ، وألقوا وزر هذه الدماء كلها على ثلاثة من الكفار — أو أئمة الضلالة في رأيهم — وهم على بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص

فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم على بن أبي طالب
وقال البرك : أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان
وقال عمرو بن بكر : أنا أكفيكم عمرو بن العاص
وإن ضغينة الثأر لحافز أي حافز وإن تهوس العقيدة
لثير أي مثير
وكان للمتآمرين الثلاثة قسط واف من هذين الحافزين

يغنى عن مزيد من التحريض على القتل والانتقام
ولكن المصادفة العجيبة هي التي شاءت أن تشحذ عزيمة
ابن ملجم بحافز ثالث لعله يمضى حين ينبو هذان الحافزان
الماضيان ، وهو حافز من الغرام الظامئ لا يرويه إلا دم
ذلك الشهيد الكريم

فإن المرء قد ينجم نائرة الحقد ، وقد يمارى نفسه فما
تفرضه العقيدة ولكنه إذا كان عاشقاً مخبولاً يستنجزه الوعد
معشوق مسلط عليه ، فهو مأسور زمامه في يدي غيره ،
وليس في يديه

وكان ابن ملجم يحب فتاة من تيم الرباب قتل أبوها
وأخوها وبعض أقربائها في معركة الخوارج ، وكانت توصف
بالجمال الفائق والشكيمة القوية ، وتدين بمذهب قومها فوق
ما في جوانحها من لوعة الحزن على ذويها ، فلما خطبها ابن
ملجم لم ترض به زوجاً إلا أن يشفى لوعتها . قال : وما يشفيك ؟
قالت : ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة ، وقتل علي بن
أبي طالب

قال : أما قتل علي فلا أراك ذكرته لي وأنت تريدني ..
قالت : بل التمس غرته . فإذا أصبت شفيت نفسك ونفسي
وبهناك العيش معي وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا
ووزينتها وزينة أهلها

وخرج الثلاثة متواعدين إلى ليلة واحدة يقتل كل منهم صاحبه في ذلك الموعد

فأما عمرو بن العاص فقد اشتكى بطنه تلك الليلة فلم يخرج من بيته وأمر خارجة بن حذافة صاحب شرطته أن يصلى بالناس . فضربه عمرو بن بكر وهو يحسبه عمراً فقتله . فقال عمرو : أردتني وأراد الله خارجة ، وأمر بقتله

وأما معاوية فضربه البرك بن عبد الله وقد خرج الغداة للصلاة ف وقعت الضربة على أليته . وقيل إن الطعنة مسمومة لا يشفيها إلا الكى بالنار أو شراب يمنع النسل . فجزع معاوية من النار ورضى انقطاع النسل وهو يقول : فى يزيد وعبد الله ما تقر به عيني ، وأمر بالرجل فقتل لحينه

وأما على فضربه ابن ملجم فى جبينه بسيف مسموم وهو خارج للصلاة ، فمات بعد أيام وهو يحذر أولياء دمه من المثلة ويقول لهم : « يا بنى عبد المطلب . لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين ، قتل أمير المؤمنين . ألا لا يقتلن أحد إلا قاتلى » . . . انظر يا حسن ؟ إن أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة . ولا تمثل بالرجل فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور »

وهذه خاتمة فاجعة ، ننظر في كل فرض من فروضها فلا نخليها من المصادفة السيئة التي لا تلقى تبعثها على أحد بعينه فهي المصادفة السيئة مهما تلتبس لها علة من علل التاريخ ترجع بنا في آخر الأمر إلى علل المصادفات التي لا تقبل التعليل

وشيء آخر تصوره لنا هذه الخاتمة الفاجعة كما تصوره لنا البيعة كلها من قبل ابتدائها إلى ما بعد انتهائها وذلك هو النسيج الإنساني النابض الذي يتخلل حياة على في لحمها وسداها وفي تفصيل أجزائها وجملة فحواها . فما من حادثة من حوادث هذه الحياة النبيلة إلا وهي معرض حافل للعواطف الإنسانية برمتها ، تلتقى فيه عوامل النخوة والشجاعة والوفاء والإيمان والسماحة ، وتشبك فيه بمطامع الناس وأشواقهم وظواهرهم وخفاياهم ذلك الاشتباك الذي يخلق الشعراء خلقاً في القصص والملاحم ، فلا يحكمونه بعض لإحكام الواقع الملموس في سيرة الإمام

وهذه مزية على بين خلفاء الإسلام قاطبة . ينفرد بها لأنه انفراد بمثال من النفوس ومثال من العصور ومثال من العوارض الفردية والاجتماعية تؤلفه المصادفات في الأجيال الطوال ، ولا تحسن أن تؤلفه بمشيئتها في كل جيل تلك حياة حي ، وذلك مصرع شهيد .

سياسته

تسرى في صفحات التاريخ أحكام مرتجلة يتلقفها فم من فم ، ويتوارثها جيل عن جيل ، ويتخذها السامعون قضية مسلمة ، مفروغاً من بحثها والاستدلال عليها ، وهي في الواقع لم تعرض قط على البحث والاستدلال ، ولم تتجاوز أن تكون شبهة وافقت ظواهر الأحوال ، ثم صقلتها الألسنة فعر عليها بعد صقلها أن تردّها إلى الهجر والإهمال

من تلك الأحكام المرتجلة قولهم إن علياً بن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بخدع الحرب والسياسة وقد شاع هذا الرأي في عصر على بين أصحابه كما شاع بين أعدائه ، وعزز القول به أنه خالف الدهاة من العرب فيما أشاروا به عليه ، وأنه لم ينجح بعد هذه المخالفة في معظم مساعيه ، فكان من الطبيعي أن يقال إنه منى بالفشل لأنه عمل بغير ما أشار به أصحابه الدهاة ، وإنه هو لم يكن من أصحاب الخدع الناجحة في الحرب أو السياسة

ولكن هل خطر لأحد من ناقديه ، في عصره أو بعد عصره ، أن يسأل نفسه : أكان في وسع على أن يصنع غير ما صنع ؟

وهل خطر لأحد منهم أن يسأل بعد ذلك :

هبة استطاع أن يصنع غير ما صنع فما هي العاقبة ؟

وهل من المحقق أنه كان يفضي بصنيعه إلى عاقبة أسلم من العاقبة التي صار إليها ؟

لم نعرف أحداً من ناقديه خطر له أن يسأل عن هذا

أو ذاك ، مع أن السؤال عن هذا وذاك هو السبيل الوحيد إلى

تحقيق الصواب والخطأ في رأيه ورأى مخالفه ، سواء كانوا

من الدهاة أو غير الدهاة

وهذه هي المسائل التي خالفه فيها الدهاة ، أو خالفه

فيها نقدة التاريخ الذين نظروا إليها من الشاطئ ، ولم ينظروا

إليها نظرة الربان في غمرة العواصف والأمواج . فلما أخذ التي

من هذا القبيل يمكن أن تنحصر في المسائل التالية ، وهي :

عزل معاوية ومعاملة طلحة والزبير وعزل قيس بن سعد

من ولاية مصر وتسليم قتلة عثمان وقبول التحكيم وقبول الخلافة

وهي كلها على الأقل قابلة للخلاف والاحتجاج من

كلا الطرفين

* * *

قليل في مسألة معاوية إن علياً رضي الله عنه خالف

فيها رأى المغيرة وابن عباس وزياد بن حنظلة التميمي ، وهم

جميعاً من المشهورين بالحنكة وحسن التدبير

جاءه المغيرة بن شعبة بعد مبايعته فقال له : « إن لك حق الطاعة والنصيحة ، وإن الرأي اليوم تحرز به ما في غد ، وإن الضياع اليوم تضيع به ما في غد . أقرر معاوية على عمله ، وأقرر ابن عامر على عمله ، وأقرر العمال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت » فأبى وقال : « لا أداهن في ديني ولا أعطى الدنيا في أمري »

قال المغيرة : فإن كنت أبيت على فأنزع من شئت واترك معاوية ، فإن في معاوية جرأة ، وهو في أهل الشام يستمع له ولك حجة في إثباته . إذ كان عمر قد ولاه الشام فقال على : لا والله . لا أستعمل معاوية يومين ثم خرج المغيرة ودخل عليه ابن عباس فقال له ، لما علم برأى المغيرة : إنه نصحك . قال على : ولم نصحني ؟ قال : لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا ، فتي تثبتهم لا يبالوا بمن ولى هذا الأمر ، ومتى تعزلم يقولوا أخذ هذا الأمر بغير شورى وهو قتل صاحبنا ، ويؤلبون عليك فينتقض عليك أهل الشام وأهل العراق

ثم مضت الأيام وشاع بين أهل المدينة أن معاوية منتقض على الإمام ، فبعثوا بزياد بن حنظلة التميمي يعلم ما عنده من أمر هذا الانتقاض ، وكان زياد من جلسائه فقال له الإمام : تيسر.

قال زياد : لأى شىء ؟ قال : تغزو الشام .
فقال زياد : الأناة والرفق أمثل ، واستشهد بقول الشاعر :
ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
فتمثل على :

متى تجمع القلب الذكى وضارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم
فخرج زياد إلى الناس : وهم يسألونه : ما وراءك ؟
فأجابهم : هو السيف يا قوم !

* * *

تلك آراء المشيرين من ذوى الحنكة ، وذلك ما عمل
به الإمام وارتضاه . فأيهما على خطأ وأيهما على صواب ؟
سبيل العلم بذلك أن نعلم أولاً : « هل كان الإمام مستطيعاً
أن يقر معاوية فى عمله بالشام ؟ » وأن نعلم بعد هذا « هل
كان لإقراره أدنى إلى السلامة والوفاق لو أنه استطاع ؟ »

وعندنا أن الإمام لم يكن مستطيعاً أن يقر معاوية فى
عمله لسببين : أولهما أنه أشار على عثمان بعزله أكثر من مرة ،
وكان لإقراره وإقرار أمثاله من الولاة المستغلين أهم المآخذ على
حكومة عثمان فى رأى على وذوى الصلاح والاستقامة بين
الصحابة ، وكثيراً ما اعتذر عثمان من إقرار معاوية بأنه من
ولاة عمر بن الخطاب فكان على لا يقبل هذا العذر ولا يزال
يقول له : إنه كان أخوف لعمر بن الخطاب من غلامه « يرفأ » .

ولكنه بعد موت عمر لا يخاف

فإذا أقره وقد ولى الخلافة فكيف يقع هذا الإقرار عند
أشياعه ؟ ألا يقولون إنه طالب حكم لا يعنيه إذا وصل إلى
بغيته ما كان يقول وما سيقوله الناس ؟

وإذا هو أعرض عن رأيه الأول فهل فى وسعه أن يعرض
عن آراء الثائرين الذين بايعوه بالخلافة لتغيير الحال والخروج
من حكم عثمان إلى حكم جديد ؟

إن هؤلاء الثائرين أشفقوا من نية الصلح مع طلحة والزبير
فى وقعة الجمل فبدأوا بالهجوم قبل أن يؤمروا به ، بل هجموا
على أهل البصرة وهم مأمورون بالهدنة والأناة . فكيف تراهم
يهدأون ويطيعون إذا علموا أن الولايات بأقية على حالها ،
وأن الاستغلال الذى شكوا منه وسخطوا عليه لا تبديل فيه ؟

وندع هذا ونزعم أن إقرار معاوية بمحيلة من الحيل مستطاع .
فهل هو على هذا الزعم أسلم وأدنى إلى الوفاق ؟
كلا . على الأرجح ، بل على الرجحان الذى هو فى

حكم التحقيق

لأن معاوية لم يعمل فى الشام عمل وال يظل والياً طول
حياته ويقنع بهذا النصيب ثم لا يتناول إلى ما وراءه ،
ولكنه عمل فيها عمل صاحب الدولة التى يؤسسها ويدعمها
له ولأبنائه من بعده . فجمع الأقطاب من حوله واشترى

الأنصار بكل ثمن في يديه ، وأحاط نفسه بالقوة والثروة ، واستعد للبقاء الطويل ، واغتنام الفرصة في حينها فأى فرصة هو واجدها خير من مقتل عثمان والمطالبة بثأره ؟

ولنما كان مقتل عثمان فرصة لا يضيعها وإلا ضاع . منه الملك وتعرض يوماً من الأيام لضيعع الولاية . وما كان مثل معاوية بالذى يفوته الخطر من عزله بعد استقرار الأمور ولو على احتمال بعيد . فهاذا تراه صانعاً إذا هو عزل بعد عام من مبايعته لعلّى وتبرئته إياه من دم عثمان ؟

إنما كان مقتل عثمان فرصة لغرض لا يقبل الإرجاء وإذا كان هذا موقف عليّ ومعاوية عند مقتل عثمان فهاذا كان عليّ مستفيداً من إقراره في عمله وتعريض نفسه لغضب أنصاره ؟

لقد كان معاوية أحرى أن يستفيد بهذا من عليّ ، لأنه كان يغنم به حسن الشهادة له وتركية عمله في الولاية ، وكان يغنم به أن يفسد الأمر على عليّ بين أنصاره ، فتعلو حجته من حيث تسقط حجة الإمام .

* * *

والتقدير في مسألة طلحة والزبير أيسر من التقدير في مسألة معاوية وولاية عثمان على الأمصار ؛ لأن الرأي الذى عمل به الإمام معروف ، والآراء التى تخالفه لا تعدو واحداً

من ثلاثة : كلها أغمض عاقبة وأقل سلامة وأضعف ضماناً
من رأيه الذى ارتضاه

فالرأى الأول أن يوليها العراق واليمن أو البصرة والكوفة ،
وكان عبد الله بن عباس على هذا الرأى فأنكره الإمام لأن
« العراقيين بهما الرجال والأموال ، ومتى تملكنا رقاب الناس
يستميلان السفينة بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان
على القوى بالسلطان . . . »

ثم ينقلبان عليه أقوى مما كانا بغير ولاية، وقد استفادا
من إقامة الإمام لهما فى الولاية تركية يلزمانه بها الحجة ويثيران
بها أنصاره عليه

والرأى الثانى أن يوقع بينهما ليفترقا ولا يتفقا على عمل ،
وهو لا ينجح فى الوقعة بينهما إلا بإعطاء أحدهما وحرمان
الآخر . فمن أعطاه لا يضمن انقلابه مع الغرة السانحة ،
ومن حرمه لا يأمن أن يهرب إلى الأثرة كما هرب غيره ، فيذهب
إلى الشام ليساوم معاوية أو يبقى فى المدينة على ضغينة
مستورة.

على أنهما لم يكونا قط متفقين حتى فى مسيرهما من مكة
إلى البصرة ، فوقع الخلاف فى عسكرهما على من يصلى بالناس ،
ولولا سعى السيدة عائشة بالتوفيق بين المختلفين لافترقا من
لطريق خصمين متنافسين

ولم تطل المحنة بهما متفقين أو مختلفين ، فانهزما بعد أيام قليلة ، وخرج الإمام من حربهما أقوى وأمنع مما كان قبل هذه الفتنة ، ولو بقيا على السلم المدخول لما انتفع بهما بعض انتفاعه بهذه الهزيمة العاجلة

والرأى الثالث أن يعتقلهما أسيرين ولا يبيح لهما الخروج من المدينة إلى مكة حين سألاه الإذن بالمسير إليها ثم خرجا منها إلى البصرة ليشنا الغارة عليه

والواقع أن الإمام قد استراب بما نوياه حين سألاه الإذن بالسفر إلى مكة . فقال لهما : « ما العمرة تريدان وإنما تريدان الغدرة »

ولكنه لم يجبسهما لأن حبسهما لن يغنيه عن حبس غيرهما من المشكوك فيهم . وقد تركه عبد الله بن عمر ولم يستأذنه في السفر ، وتسلسل إلى الشام أناس من مكة ومن المدينة ولا عائق لهم أن يتسللوا حيث شاءوا ، ولو أنه حبسهم جميعاً لما تسنى له ذلك بغير سلطان قاهر ، وهو في ابتداء حكمه لما يظفر بشيء من ذلك السلطان ، وأغلب الظن أن سواد الناس كانوا يعطفون عليهم وينقمون حبسهم قبل أن تثبت له البينة بوزرهم . وما أكثر المتخرجين في عسكر الإمام من حبس الأبرياء بغير برهان ! لقد كان هؤلاء خلقاء أن ينصروهم عليه وقد كانوا ينصرونه عليهم ، وخير له مع طلحة

والزبير وأمثالهما أن يعلنوا عصيانهم فيغلبهم من أن يكتموا
 فيغلبوه ويشككوا بعض أنصاره في عدله وحسن مجاملته لمن
 حاسنوه ولم يصارحوه بعداء

وعلى هذا كله لم يكن الجيش الذي خرج من مكة إلى
 البصرة بيأس من الخروج إليها إذا لم يصحبه طلحة والزبير .
 فقد كانت « العمانية » في مكة حزباً موفور العدد والمال . فهي
 مسألة تلتبس فيها الطرائق ولا يسعنا أن نجزم بطريقة منها
 أسلم ولا أضمن عاقبة من الطريقة التي سلكها الإمام وخرج
 منها غالباً على الحجاز والعراق ، وما كان وشيكاً أن يغلب
 عليهما لو بقي معه طلحة والزبير على فرض من جميع الفروض
 التي قدمناها

* * *

أما عزل قيس بن سعد من ولاية مصر فهي غلطة من
 غلطات الإمام يقل الخلاف فيها

لأن قيس بن سعد كان أقدر أصحابه على ولاية مصر
 وحمايتها ، وكان كفواً لمعاوية وعمر بن العاص في الدهاء والمداورة ،
 فعزله الإمام لأنه شك فيه ، وشك فيه لأن معاوية أشاع مدحه
 بين أهل الشام وزعم أنه من حزبه والمؤتمرين في السر بأمره

وكان أصحاب علي يحرضونه على عزله وهو يستملهم
 ويراجع رأيه فيه حتى اجتمعت الشبهات لديه . فعزله وهو

غير واثق من التهمة ، ولكنه كذلك غير واثق من البراءة
 وشبهاته مع ذلك لم تكن بالقليلة ولا بالضعيفة ، فإن
 قيس بن سعد لم يدخل مصر إلا بعد أن مر بجماعة من حزب
 معاوية فأجازوه ولم يحاربوه وهو في سبعة نفر لا يحمونه
 من بطشهم ، فحسبوه حين أجازوه من العثمانية الهاربين إلى
 مصر من دولة عليّ في الحجاز

ولما بايع المصريون عليّاً على يديه بقي العثمانيون لا يبايعون
 ولا يهودون ، وقالوا له : أمهلنا حتى يتبين لنا الأمر ، فأمهلهم
 وتركهم وادعين حيث طاب لهم المقام بجوار الإسكندرية
 ثم أغراه معاوية بمناصرتهم والخروج على الإمام فكتب
 إليه كلاماً لا إلى الرفض ولا إلى القبول ، ويصح لمن سمع
 بهذا الكلام أن يحسبه مرواغاً لمعاوية أو يحسبه مترقباً لساعة
 الفصل بين الخصمين . إذ كان ختام كتابه إليه : « . . . أما
 متابعتك فأنظر فيها ، وليس هذا مما يسرع إليه ، وأنا كاف
 عنك فلا يأتيك شيء من قبلي تكرهه ، حتى نرى وترى »

ثم اشتد في وعيده حين أنذره معاوية فقال : « أما قولك
 إني مالي عليك مصر خيلاً ورجلاً ، فوالله إن لم أشغلك بنفسك
 حتى تكون نفسك أهم إليك إنك لذو جد والسلام »
 وأراد الإمام أن يستيقن من الحصومة بين قيس ومعاوية
 فأمر قيساً أن يحارب المتخلفين عن البيعة ، فلم يفعل

وكتب إليه : « ... متى قاتلناهم ساعدوا عليك عدوك وهم الآن معتزلون والرأى تركهم »

فتعاطف شك الإمام وأصحابه وكثر المشيرون عليه بعزل قيس واستقدمه إلى المدينة ، فعزله واستقدمه ، وتبين بعد ذلك أنه أشار بالرأى الصواب وأن ترك المتخلفين عن البيعة في عزلهم خير من التعجيل بحربهم ، لأنهم هزموا محمد بن أبي بكر وإلى مصر الحديد ، وجرأوا عليه من كان يصانعه ويواليه

غلطة لا ريب فيها

ولكننا نبالغ على كل حال إذا علقنا بها الجرائر التي أصابت الإمام من بعدها ، وزعمنا أنه تقاعد عن إصلاحها في حينها ، كما تصلح الغلطات التي يساق إليها الساسة ، فإنما هي غلطة من تلكم الغلطات التي تضير والحوادث مولية وقلما تضير أو تعز على الإصلاح والحوادث مؤاتية . وقد عرف الإمام خطأه فقال لصحبه : « إن مصر لا يصلح لها إلا أحد رجلين : هذا الذي عزلناه والأشتر » ، وأنفذ الأشتر إلى مصر ليعيدها إلى طاعته فمات في الطريق ؟

والأقوال في موت الأشتر هذه الميئة الباغثة كثيرة ، منها أنه مات غيلة وأن معاوية أغرى به من دس له السم في غسل شربه وهو على حدود مصر ففضى نجه ، وروى

أن معاوية قال حين بلغه موته : « إن لله جنوداً من العسل »
 فإن صحت الرواية واعتقد من اعتقد أنها من دلائل
 السياسة القوية عند معاوية فما لاشك فيه أن موت الأشتر لم
 يكن من دلائل السياسة الضعيفة عند الإمام . وأنه لا لوم
 على سياسته في اغتياله ، إن كان فيه سبب ثناء على سياسة
 الغيلة ، عند من يحمونها

ثم تأتي مسألة القصاص من قتلة عثمان التي كانت أطول
 المسائل جدلاً بين الإمام وخصومه فإذا هي أقصرها جدلاً مع
 براءة المقصد من الهوى وخلوص الرغبة في الحقيقة

فقد طالبوه بالقود ولم يبايعوه ، مع أن القود لا يكون
 إلا من ولى الأمر المعترف له بإقامة الحدود

وطالبوه به ولم يعرفوا من القتلة ومن هو الذى يؤخذ بدم
 عثمان من القبائل أو الأفراد

وأعنتوه بهذا الطلب لأنهم علموا أنه لا يستطيع قبل أن
 تثوب السكينة إلى عاصمة الدولة ، وأعفوا أنفسهم منه - وهم
 ولاية الدم كما يقولون - يوم قبضوا على عنان الحكم وثابت
 السكينة إلى جميع الأمصار

وقد تحدث الإمام مرة في أمر القود من قتلة عثمان فإذا
 بجيش يبلغ عشرة آلاف يشرعون الرماح ويجهرون بأنهم
 « كلهم قتلة عثمان » . . . فمن شاء القود فليأخذه منهم أجمعين

ولو أن المطالبين بدم عثمان التمسوا أقرب الطرق إلى النار له والقصاص من العادين عليه لقد كان هذا أقرب الطرق إلى ما أرادوا . يؤيدون ولى الأمر حتى يقوى على إقامة الحدود ، ثم يحاسبونه بحكم الشريعة حساب إنصاف

إلا أنهم طلبوا ما لا يجاب ، وما لم يكن من حقهم أن يطلبوه ، وليس بينهم أعف ولا أتقى من السيدة عائشة رضى الله عنها . وقد روى عنها أنها قالت لما أخبرت ببيلة على وهى خارجة من مكة : « ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لعلى » تشير إلى السماء والأرض . . .

ثم عادت إلى مكة وهى تقول : « قتل والله عثمان مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه »

ف قيل لها : ولم ؟ والله إن أول من أثار الناس عليه لأنت ، ولقد كنت تقولين : اقتلوا « نعثلا » فقد كفر فقالت : « لأنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولى اليوم خير من قولى الأول »

وناهيك بالسيدة عائشة فى فضلها ومكانتها وتقواها ، فقل ما شئت فى المطالبين غيرها بهذا المطلب الذى لا يجاب ، والرضى أو الإرضاء مستحيل حين يكون الطالب من هذا القبيل

* * *

أما الذين لاموه لقبوله التحكيم فيخيل إلينا من عجلتهم

إلى اللوم أنهم كانوا أول من يلومه ويفرط في لومه لو أنه
رفض التحكيم وأصر على رفضه ، لأنه لم يقبل التحكيم وله
مندوحة عنه

ولكنه قبله بعد إحجام جنوده عن الحرب وشك القتال
في عسكرهم خلافاً بين من يقبلونه ويرفضونه
-وقبله بعد أن حجز الحفاظ والقراء نيفاً وثمانين فرقة للقتال
لشكهم في وجوبه وذهاب بعضهم إلى تحريره

وبعد أن توعدوه بقتلة كقتلة عثمان وأحاطوا به يلجون عليه
في استدعاء الأشتر النخعي الذي كان يلاحق أعداءه مستحصداً
في ساحة الحرب على أمل في النصر القريب

والمؤرخون الذين صوبوا رأيه في التحكيم وخطأوه في
قبول أبي موسى الأشعري على علمه بضعفه وتردده ينسون
أن أبا موسى كان مفروضاً عليه كما فرض عليه التحكيم في
لحظة واحدة ، وينسون ما هو أهم من ذلك وهو أن العقابة
متشابهة سواء ناب عنه أبو موسى الأشعري أو ناب عنه
الأشتر أو عبد الله بن عباس . فإن عمرو بن العاص
لم يكن ليخلع معاوية ويقر علياً في الخلافة ، وقصارى
ما هنالك أن الحكيم سيفترقان على تأييد كل منهما لصاحبه
ورجعة الأمور إلى مثل ما رجعت إليه . وإن توهم بعضهم
أن الأشتر أو ابن عباس كان قديراً على تحويل ابن العاص

من رأيه والجنوح به إلى حزب الإمام بعد مساومته التي ساومها
 في حزب معاوية فليس ذلك على التحقيق بمقنع معاوية أن
 يستكين ويستسلم ، وحوله المؤيدون والمترقبون للمطامع
 واللبانات يعز عليهم إخفاقهم كما يعز عليه إخفاقه ، وما أسهل
 مرجع الشرعى الذى يلوذ به معاوية فيقبله منه أصحابه
 ويتابعونه على نقض حكم الحكمين المتفقين ! لقد كان النبى
 عليه السلام يقول عن عمار بن ياسر إنه « تقتله الفتنة الباغية »
 فلما قتله جند معاوية وخيفت الفتنة بينهم أن تلزمهم سبة
 البغى بشهادة الحديث الشريف - قال قائل منهم : إنما قتله
 من جاء به إلى الحرب . فشاع بينهم هذا التفسير العجيب
 وقبلوه جميعاً غير مستثنى منهم رجل واحد . أفلا يقبلون تفسيراً
 شله إذا تحول ابن العاص وأفتى الحكمان بخلع معاوية ومبايعه
 الإمام ؟

فليس في أيدي المؤرخين الناقدين إذن حل أصوب من
 الحل الذى أذعن له الإمام على كره منه ، سواء أذعن له وهو
 عالم بخطئه أو أذعن له وهو يسوى بينه وبين غيره في عقابه

ويبقى اعتزال الخلافة من أول الأمر وهو خطة ترد على الخاطر
 حيال هذه المعضلات التي واجهها الإمام ولم يكن عسيراً عليه
 أن يتوقعها بعد مقتل عثمان وشيوع الفتنة والشقاق بين الأمصار
 كلها ، وشيوعهما قبل ذلك بين جنده الذى يعول عليه

فمن السخف أن يخطر على البال أن رجلاً كعلي بن أبي طالب يترك وادعاً في سربه بين هذه الزعازع التي تحيط بالدولة الإسلامية في عصره

إن تركه الثوار وأعفوه من الحكم لم يتركه أصحاب السلطان ولم يعفوه من الدسيسة والإيذاء ، لا اعتقادهم أنه باب من أبواب الخطر الدائم ، وأنه ما عاش فهو علم منصوب يؤيئ إليه كل ساخط وكل مصلح وكل مخالف على الدين أو على الدنيا . وقد قيل إن ابنه الحسن مات مسموماً في عهد معاوية خوفاً من لياذ الناس به ورجعتهم إليه . وقيل مثل ذلك عن عبد الله بن خالد بن الوليد . وما أعظم البون في المكانة والحساب بينهما وبين الإمام عند أصحاب المخاوف وأصحاب الآمال

ولعلنا نقارب هذه الحقيقة من ناحية أخرى إذا رجعنا إلى أقوال أبطال الميدان نفسه في علل النصر والهزيمة ، وفيما يقال عن مزية كل منهم على خصمه أو مزية خصمه عليه

فعلى يسمع ما يقال عن شجاعته ورجحان معاوية عليه في الدهاء فيقول : « . . . والله ما معاوية بأدهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس . . . »

أو يقول : « ولكنه لا رأى لمن لا يطاع »
ويعلل ما أصابه في بيعته بما أجمله لأتباعه حين قال لهم

« . . . لم تكن بيعتكم إياي فلتة ، وليس أمرى وأمركم واحداً
إني أريدكم لله ، وأنتم تريدوني لأنفسكم »
ومعاوية يذكر الحصال التي أعين بها على على فيقول : إنه
« كان رجلاً لا يكتم سرّاً وكنت كتموماً لسرى ، وكان يسعى
حتى يفاجئته الأمر مفاجأة وكنت أبادر إلى ذلك ، وكان
في أخبث جند وأشدّهم خلافاً . وكنت أحب إلى قريش منه ،
فقلت ما شئت . . . »

وعمر بن العاص يقول عن عدة النجاش في طلب
الخلافة : « إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا رجل له ضرسان ،
يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر »

وهذه هي أسباب النصر والهزيمة على حقيقتها ، إلا أنها
تظل ناقصة ما لم نقرنها بحقيقة أخرى ، وهي أن هزيمة معاوية
كانت مرجحة - بل مؤكدة - لو أنه وضع في موضع على
وابتلى بالأسباب التي ابتلى بها ، فالبلاء كله إنما كان في خبث
الأجناد وشدة خلافهم ، ولهذا كان سر على يعرف وسر
معاوية يكتم . لأن معاوية يطاع ونيته في صدره وعليه لا يطاع
إلا إذا سئل عن نيته وما يحل منها أو يحرم في رأى أتباعه

على أننا نود أن نقف عند الحد المأمون في تعليل النصر
والهزيمة ولا نعدوه إلى ما وراءه . فليس من قصدنا أن نصف
عليّاً بقوة الدهاء وسعة الحيلة ، ولكننا قصدنا أن نبرئه من

عجز الرأى وضعف التدبير ، لأن أسباب الهزيمة موفورة بغير هذا السبب الذى لا دليل عليه

ومما لا شك فيه أن علياً أشار بالرأى فى مواقف كثيرة فأصاب المشورة ، وأنه وصف أناساً فدل على خبرة بالرجال وما يغلب عليهم من الطباع والخصال ، وأنه أخذ بالحزم فى توقع الحوادث واستطلاع الأمور ولكنه لزم الكفاية فى ذلك ولم يتجاوزها إلى الأمد الذى يسلكه بين الدهاة الموسومين بفرط الدهاء

فمن مشوراته الصائبة أنه نهى عمر رضى الله عنه أن يخرج لحرب الروم والفرس بنفسه ، فقال له : « إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك فتلقهم فتتكب لا تكن للمسلمين كائنة دون أقصى بلادهم . . . ليس بعدك مرجع يرجعون إليه ، فابعث إليهم رجلاً مجرباً . . . فإن أظهره الله فذاك ما تحب وإن تكن الأخرى كنت رداءً للناس ومثابة للمسلمين »

ومن وصفه للرجال وأساليب تناولهم قوله لابن عباس وقد أرسله إلى طلحة والزبير : « لا تلقين طلحة فإنك إن تلقه تلفه كالثور عاقصاً - أى لاوياً - قرنه يركب الصعب ويقول هو الذلول ، ولكن الق الزبير فإنه ألين عريكة فقل له : يقول لك ابن خالك عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق . فما عدا مما بدا ؟ »

ومن حزمه أنه كان يبث عيونه وجواسيسه في الشرق والغرب ليطلعوه على أخبار أعوانه وأعدائه ، وأنه كان إذا وجبت الحرب بادر بالخروج ولم يأت التردد والإبطاء بعد ذلك إلا من خلاف جنده

ومن معرفته للجماهير أنه وصفهم أوجز وصف حين قال لهم أتباع كل ناعق ، ولأنهم « هم الذين إذا اجتمعوا ضروا وإذا تفرقوا نفعوا » . . . لأنهم إذا تفرقوا رجع أصحاب المهن إلى مهنتهم فانتفع بهم الناس

فهذا قسط من الرأي الصائب كاف لمهمة الحكم لو تصدى به الإمام للخلافة والعصر عصر خلافة وليس بعصر دولة دنيوية مضطربة في دور تأسيسها وتلفيق أجزائها

ولكنه قسط من الرأي لا يسلك صاحبه بين أساطين الدهاة الذين يكيّدون بالرأي وبالعمل النافذ على السواء

ونعود بعد هذا فنقول إنه لم يخسر كثيراً بما فاتته من الدهاء ، ولم يكن ليربح كثيراً لو استوفى منه أوفى نصيب لأنه لا بد من ملك أو خلافة

ولن يكون ملكاً بأدوات خليفة ، ولا خليفة بأدوات ملك ، وإن تبلغ به الحيلة أن يحارب رجلاً يريد العصر والعصر يريد ، لأنه عصر ملك تهيأت له الدواعي الاجتماعية ، وهيأ له الرجل بخلائقه ونياته ومعاونة أمثاله

ولم يكن معاوية زاهداً في الخلافة على عهد أبي بكر
أو عمر أو عثمان ، ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه
فلما جاء عصر الملك طلب الملك والملك يطلبه

* * *

وقد يحسن بالمؤرخ بعد الموازنة بين عدة الخلافة وعدة
الملك في صراع على معاوية أن يذكر عدة أخرى لم تظهر في
هذا الصراع ، وقد ظهرت في مآزق شتى من أخرج مآزق
التاريخ واعتمد عليها أبطاله الكبار كثيراً في تأسيس الدول
وقمع الثورات ، فاختصروا الطريق وأراحوا أنفسهم من عناء
طويل ، ونريد بها عدة البطش العاجل والمباغته الحاسمة كلما
تأشبت العقد وتعسرت الحيلة ووجب الخلاص السريع

فقد علمنا مثلاً أن الأشعث بن قيس كان يعترض الإمام
في كل خطوة من خطوات النصر ويثقل عليه باللجاجة والعنت
في مواقف مكربة تضيق بها الصدور

ولم يكن الأشعث بن قيس بالوحيد في هذا الباب ، بل
كان له شركاء من الخوارج وغير الخوارج يظهرون بالعنت
في غير موضعه ويذهبون به وراء حده ، وربما بلغوا به من
الضرر في معسكر الإمام فوق مبلغ الأشعث بن قيس ، على
عظم الفارق بين سلطانهم وسلطانه
ألا يخطر على البال هنا أن ضربة من الضربات القاضية

كانت تنجع في هذا العنت المكرب حيث لا تنجع العقوبة الشرعية أو الأحابيل السياسية ؟

ماذا لو أن الإمام جرد سيفه بين أولئك المشاغبين وطاح برأس الأشعث بن قيس قبل أن يفيق أحد إلى نفسه ثم ولى على الفور من يقوم مقامه في رئاسة قومه ويكفل له الطاعة بينهم لأمره ؟ أكان بعيداً أن تفعل الرهبة فعلها فيسكن الشاغب وهباب المتطاول ويجتمع المتفرق ويقل الخلاف بعد ذلك على الإمام وعلى الرؤساء عامة ؟

لم يكن ذلك ببعيد ولكنه كذلك لم يكن بالحقق ، ولا بالمأمون .

فهى مجازفة ذات حدين تصيب بأحدهما وقد تصيب بهما معاً . . .

وكل ما تفيدنا إياه هذه الملاحظة العابرة على التحقيق أن الإمام رضى الله عنه لم يكن من أصحاب هذه الملكة التى اتصف بها بعض أبطال القلاقل فى أيام الفصل بين عهدين متدبرين .

فكانت له ضربة الشجاع ، ولم تكن له ضربة المغامر أو المقامر .

* * *

ومهما يكن من حكم الناقلين فى سياسة الإمام فمن

البحر الشديد أن يطالب بدفع شيء لا سبيل إلى دفعه ،
وأن يحاسب على مصير الخلافة وهي منتهية لا محالة إلى ما انتهت
إليه

وقد نقدت سياسة عليّ لفوات الخلافة منه قبل البيعة ،
كما نقدت سياسته لفوات الخلافة منه بعد البيعة ، وأحصى
عليه بعض المؤرخين أنه تأخر نيفاً وعشرين سنة فلم يخلف
النبي ولم يخلف أباً بكر ولم يخلف عمر ، كأنه كان مستطيعاً
أن يخلف أحداً منهم بعمل من جهده وسعى من تدبيره ،
فأعياه السعى والتدبير

فما لا شك فيه أن الإمام أنكر إجحافاً أصابه في تخطيه
بالبيعة إلى غيره بعد وفاة ابن عمه صلوات الله عليه ، وأنه
كان يرى أن قرابته من النبي مزية ترشحه للخلافة بعده
لأنها فرع من النبوة على اعتقاده ، وهم شجرة النبوة ومحط
الرسالة ، كما قال

وما لا شك فيه أن شعوره هذا طبيعي في النفس الإنسانية
كيفما كان حظها من الزهد والقناعة ، لأن تخطيه — مع
هذه المزية التي ترشحه للبيعة — يشبه أن يكون قدحاً في
مزاياه الأخرى من علم وشجاعة سابقة وجهاد وعفة عن
المطامع ، أو يشبه أن يكون كراهة له ومما لا على الغرض
من قدره ، ولم يزل من غرائز النفوس أن يسوءها القدح

فيها والخط من مزاياها ومواجهتها بالنفرة والكراهة
إلا أن الخلافة الإسلامية مسألة عالمية لا توزن بميزان
واحد ولا يؤتم فيها برأى واحد ولا بحق واحد . وقد يضحى
في سبيلها بالعظيم والعظماء الكثيرين إذا تعارضت الحقوق
وتشعبت الآراء

وبشأن القدر أن تكون المزية الأولى في ميزان على هي
العائق الأول في سائر الموازين ، ومنها ميزان النبي صلوات
الله عليه

فقد كان عليه السلام يأبى أن يثير العصبية في قریش
وفي القبائل العربية عامة ، لعلمه بخطر هذه العصبية على
الدعوة الجديدة وكراهته أن يصور الإسلام للعرب كأنه
سيادة هاشمية تتوارثها عنه عصبه هاشم دون العصب من
سائر العرب والمسلمين ، قد رضى في سبيل هذا المقصد
الحكيم أن يجعل بيت أبى سفيان صنواً للكعبة في أمان
اللاجئين إليه ، وأصهر إلى أبى سفيان وندب ابنه معاوية
للكتابه له بين النخبة المختارة من كاتبه ، وربما حسن لديه
أن تقول الخلافة إلى على بعده إذا شاء المسلمون ذلك ،
ولكن على أن تكون خلافته اختياراً مرضياً كاختيار غيره
من أنصاره وأصحابه ، ويستوى منهم القريب والبعيد

ولم تكن الحكمة النبوية هي وحدها التي تأتي إثارة

العصبيات وتصوير الإسلام للعرب وللناس عامة في صورة
السيادة الهاشمية ، بل كانت الدعوة كلها في صميم أصولها
تأبى هذا الذي أبته الحكمة النبوية وتجتنبه غاية ما في وسعها
اجتنابه . لأن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية تشمل الأمم
كافة من عرب إلى عجم ومن مشرق إلى مغرب ، وتقوم
في أساسها على المساواة بين الناس ورد المفاضلة بينهم إلى
الأعمال والأخلاق دون الأحساب والأعراق ، فليس من
المعقول أن تسود العالم كله أسرة هاشمية ، ولا من المعقول
أن يبنى الأساس على المساواة وأن يقام الحكم على هذا
التفضيل

وإن أحق الناس أن يفتن إلى هذه الحكمة لهم أولئك
الغلاة الذين زعموا أن وراثة الخلافة في بني هاشم حكم من
أحكام الله وضرورة من ضرورات الدين

فلو أنها كانت حكماً من أحكام الله لكان أعجب
شيء أن يموت النبي عليه السلام وليس له عقب من الذكور ،
وأن يختم القرآن وليس فيه نص صريح على خلافة أحد
من آل البيت

ولو أنها كانت من ضرورات الدين ، أو ضرورات
القضاء ، لنفذت في الدنيا كما ينفذ القضاء المبرم ، وحبطت
كل خلافة تنازعها كما تحبط كل بدعة تناقض السنن الكونية

وهذا هو العائق الأول الذى حال بين على وبين الخلافة ولا قدرة له عليه ، وقد لحظه العرب ولحظته قريش خاصة ، وذكره الفاروق حين قال : إن قريشاً اختارت لنفسها فأبت أن تجمع لبني هاشم بين النبوة والخلافة

ويرى بعض المؤرخين أن قريشاً كانت تحقد على الإمام وتنحيه عن الخلافة لعدة أخرى تقترب بهذه العصبية التي أوقعت التنافس بين بيوتها وبين بني هاشم ، فقد بطش الإمام بنفر من جلة البيوت القرشية في حروب المسلمين والمشركين ، وقتل من أعلام بني أمية وحدهم عتبة بن ربيعة جد معاوية والوليد بن عتبة خاله وحنظلة أخاه ، وجميعهم من قتلاه في يوم بدر عدا من قتلهم في الوقائع والغزوات الأخرى ، فحفظ أقاربهم له هذه التراث بعد دخولهم في الإسلام ، وزادهم حقداً عليه أنهم لا يملكون الثأر منه لقتلهم من الكفار . وكانت حاله بعد تلك المدة كما قال ابن أبي الحديد : « . . . كأنها حاله لو أفضت الخلافة إليه بعد وفاة ابن عمه ، من إظهار ما في النفوس وهيجان ما في القلوب ، حتى الأخلاف من قريش والأحداث والفتيان الذين لم يشهدوا وقائعهم وفككاته في أسلافهم وآبائهم ، فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله »

وقد علم الإمام هذا من قريش عند ما يش من مودتها

وابتلى بالصريح والدخيل من كيدها فقال : « مالى ولقريش ؟
 أما والله لقد قتلهم كافرين ولأقتلهم مفتونين . . . والله
 لأبقرن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته . فقل لقريش
 فلتضج ضجيجها »

* * *

ولقد سبق الإمام إلى الخلافة ثلاثة من شيوخ الصحابة
 هم أبو بكر وعمر وعثمان

فإذا نظرنا إلى عائق العصبية الذى قدمناه فلا نرى
 شيئاً أقرب إلى طبائع الأمور من سبق هؤلاء الثلاثة بأعيانهم
 إلى ولاية الخلافة بعد النبي عليه السلام ، لأنهم أقرب الناس
 أن يختارهم المسلمون بعد خروج العصبية الهاشمية من مجال
 الترجيح والترشيح

فليس أقرب إلى طبائع الأمور فى بلاد عربية إسلامية
 من اتجاه الأنظار إلى مشيخة الإسلام فى السن والوجاهة
 والسابقة الدينية ، لاختيار الخليفة من بينها على السنة التى
 لم تتغير قط فى تواريخ العرب الأقدمين ، ولم يغيرها الإسلام
 بحكم العادة ولا بحكم الدين

ولم يكن الإمام عند وفاة النبي من مشيخة الصحابة
 التى تؤول إليها الرئاسة بداهة بين ذوى الأسنان ممن مارسوا
 الشورى والزعامة فى حياته عليه السلام ، لأنه كان يومئذ

ففي يجاوز الثلاثين بقليل ، وكان أبو بكر وعمر وعثمان قد لبثوا في جوار النبي بضع عشرة سنة قبل ظهور عليّ في الحياة العامة ، وهم يشيرون على النبي ويخدمون الدين ويجمعون الأنصار ويدان لهم بالتوقيع والولاء

والعائق الذي قام بين عليّ وبين الخلافة هو في طريق هؤلاء الثلاثة السابقين تمهيد وتقريب ، ونعني به عائق العصبية الهاشمية

لأن قريشاً لا تنفس على بني تيم ولا بني عدى ولا بني أمية في رئاسة عثمان خاصة ، كما تنفس على بني هاشم إذ تجتمع لهم النبوة والخلافة

والإمام نفسه لم يفته أن يدرك هذا بثاقب نظره حين قال وقد تجاوزته الخلافة للمرة الثالثة بعد موت الفاروق : « إن الناس ينظرون إلى قريش ، وقريش تنظر إلى بيتها فتقول : إن ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً . وما كانت في غيرها من قريش تداولتموها بينكم »

وإذا اجتمع هذا العائق إلى عائق السن والتوقيع للمشخة المقدمة فهما مبعدان للإمام عن الخلافة بمقدار ما يقربان سواه

نعم إن فارق السن قد تقارب بعد موت الفاروق وبلغ الإمام الخامسة والأربعين وسبقت له في المشورة سوابق

مأثورات ، فأصبح الفارق بينه وبين من يكبرونه مزية
 تعين على العمل والجهد وتنفي مظنة الضعف والتواكل ،
 ولكن الذى كسبه بهذه المزية خسره بازدياد المطامع الدنيوية
 ويأس الرؤساء من الوفر والنعمة على يديه ، واعتقاد الطامعين
 أنهم أقرب إلى بعض الأمل فى لين عثمان وتقدم سنه منهم
 إلى أمل من الآمال فى شدة الإمام وعسر حسابه

وبقيت الجفوة بينه وبين قريش على حالها لم يكفكف
 منها تقادم العهد كما قال ابن أبى الحديد

وعلى هذه الجفوة فى القبيلة كلها دخلت فى الأمر
 دخلة البواعث الشخصية التى لا يسلم منها عمل من أعمال
 بنى الإنسان فى زمن من الأزمان . فقد اجتمع رهط الشورى
 الذين نذبهم الفاروق لاختيار الخليفة من بعده . فتقدم بينهم
 عبد الرحمن بن عوف فخلع نفسه من الأمر كله ليتاح له
 أن يستشير الناس باسمهم ويعلن البيعة على عهدتهم . وقيل
 إنه أنس من الزبير وسعد بن أبى وقاص ميلا موقوتاً إلى على
 وانحرافاً موقوتاً عن عثمان ، فسارع إلى المنبر وباع عثمان
 وجاراه الحاضرون مخافة الفتنة والشقاق

وكان عبد الرحمن بن عوف صهراً لعمان ، لأنه زوج
 أخته لأمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط
 ويقضى الحق أن يقال فى هذا المقام إن بيعة عثمان

قد تمت باتفاق بين المسلمين لم ينقضه خلاف معدود ،
فليست كلمة عبد الرحمن بن عوف هي التي خذلت علياً
وقدمت عثمان عليه ، إذ لو كانت هناك مغالبة شديدة بين
الزبيرين متكافئين لما استقامت البيعة لعثمان بكلمة من عبد الرحمن
أبن عوف وهو واحد من خمسة أو ستة إذا أشركنا معهم
عبد الله بن عمر بن الخطاب

* * *

ثم بويع الإمام بعد مقتل عثمان فهل تحولت قريش عن
جفوتها أو نظرت إلى السياسة الهاشمية نظرة غير نظرتها؟ كلا.
بل جاءت البيعة في المدينة يوم خفت فيها صوت قريش
وهبطت سمعة حكامها ، ويوم أصبحت البيعة ثورة على
قريش تنكر عليها الأثرة بالملك والأثرة بالغنائم والأمصار ،
ويوم انقسم المجتمع الإسلامي قسميه اللذين التبسا وتداخلا
حيناً حتى فصلتهما الحوادث فصلها الحاسم في خلافة عثمان :
قسم يريد الرجعة إلى الخلافة والآداب النبوية وقسم يريد
المضي في الملك والدولة الدنيوية

فأى القسمين كان قسم علي كائناً ما كان سعيه
واجتهاده ؟ وأي سياسة كانت تعينه على مشكلة الخلافة
منذ بدايتها بعد وفاة النبي إلى ختامها الفاجع بعد مقتل
عثمان ؟

كل سياسة له لم تكن لتحيد به عن الخاتمة المحتومة
أقل محيد

وكل ما كان من تدبير الحوادث أو من تدبيره فهو
على هذا الملتقى الذى يتلاحق عنده الإسراع والإبطاء

وعلى هذا ينبغي أن نرجع إلى علة غير سياسة على
لتعليل العوائق التى قامت دون مبايعته بالخلافة قبل الصديق
والفاروق وعثمان

فهو غير مسئول عن نظرة العصبية التى نظرت بها
قريش إلى السيادة الهاشمية ، وهو غير مسئول عن سنه التى
تأخرت به عن مشيخة الصحابة من ذوى السابقة فى الجهاد
والزعامة والأصالة بين ذوى الأسنان والأخطار

وهو غير مسئول عن الصفة العالمية التى جعلت تأسيس
الإسلام على أسرة واحدة فى العالم كله أمراً ملحوظاً بالتوجس
والإحجام منذ اللحظة الأولى

نعم قد يسأل الإمام عن علاقته بالناس وقدرته على
تألفهم بالآمال والمجاملات ، ليأنسوا إليه ويرفعوا حجاب
الحفوة بينهم وبينه ، ويؤثروه على غيره بالخلافة ، أملا فى
بره واطمئناناً إلى حفاوته ووده

وقد يرد على بعض الخواطر أن سياسة الدولة الدنيوية
أو سياسة الإرضاء بالمنافع والوعود كانت أجدى عليه من

آداب الخلافة الدينية وأخلق بتمكينه أولاً وآخرأ بين قريش وقبائل العرب عامة

فهذا في رأيهم مأخذ يرجع إلى شخصه وأعماله ويسأل عنه كما يسأل الإنسان عن عمله وتصريف إرادته وفكره ، ولا يجوز أن نرجع به إلى حكم الحوادث القاهرة ، وسلطان المصادفات التي لا قبل له بتبديلها

ولكن الواقع أن هذه السياسة - سياسة المنافع الدنيوية - لم تكن لتجديه شيئاً بعد وفاة النبي ولا بعد مقتل عثمان فبعد النبي عليه السلام لم تكن ذخائر الفتوح قد استفاضت في الأيدي وأنشأت في المجتمع الإسلامي طبقة مسموعة الصوت تحرص عليها وتستزيدها

فالذي يناضل في سبيل الحكم بسلاح هذه المنافع إنما كان يناضل بسلاح غير موجود . بل كان يناضل سلاحاً ماضياً ينهزم أمامه لا محالة وهو سلاح الحماسة الدينية التي غلبت في ضرباتها الأولى كل سلاح

أما بعد مقتل عثمان فأبعد الأمور عن التخيل أن يغلب على معاوية في سوق المنافع الدنيوية ، لأن معاوية قد أهب لها أهفته قبل عشرين سنة ، وجمع لها أنصاره وكثر لها كنوزه في بلاد وادعة بين جند مطيع

ولو توافرت لعلی مادة هذه السياسة لما توافر له أعوانها

والمسعدون عليها . فليس أقل نفعاً في هذا المضمار من أعوانه الذين ثاروا على سياسة المنافع وباءوا من أجلها بدم خليفة ، واجتمعوا على التمرد قاصدين أو غير قاصدين ، فلا يديرون أنفسهم إلى نهج كنهج معاوية ولو أرادوه

وأغلب الظن أن علياً كان يخسر بهذه السياسة أولئك الذين أحبه ولا يربح بها أولئك الذين أبغضوه

فقد حبيته آداب الخلافة إلى كل طبقة تكره استغلال الحكم ولا مطمع لها فيه . فكل بلاد خلت من عصبة المرشحين للحكم فقد كانت من حزبه وشيعته بغير استثناء ، فكان من حزبه شعب اليمن ومصر وفارس والعراق ، ونشأت في اليمن - وقد عهدت حكمه قديماً - تلك الطائفة السبئية التي غلت في حبه حتى ارتفعت به إلى مرتبة التقديس ، وانتشرت في مصر وفارس بذور تلك الشيعة الفاطمية والإمامية التي ظلت كامنة في تربتها حتى أخرجت شطأها بعد أجيال ، وشذت الشام لأنها كانت في يد معاوية ، وشذت أطراف من العراق أول الأمر لأنها كانت في يد طلحة والزبير ، ولم يشذ عن هذه القاعدة بلد من البلدان الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها ، فلو أن سواد الناس لا يعملون بغير عصبة من القادة ، وأن العصب من القادة كانوا كلما وجدوا في بقعة من البقاع وجد معهم النفع والاستغلال ، لقد كانت محبة

أولئك السواد أنفع له من عصب معاوية أجمعين

* * *

وتفضى بنا هذه التقديرات جميعاً إلى نتيجة واضحة
نلخصها في كلمات وجيزة ، ونعتقد أنها أعدل الأقوال في
وصف تلك السياسة التي كثرت فيها مطارح النقد والدفاع ،
فسياسة على لم تورطه في غلطات كان يسهل عليه اجتنابها
باتباع سياسة أخرى

وهي كذلك لم تبلغه مآرب مستعصية كان يعز عليه
بلوغها في موضعه الذي وضع فيه وعلى مجراه الذي جرى
عليه

فليست هي علة فشل منتزع ، ولا علة نجاح منتزع ،
أو هي لا تستدعي الفشل من حيث لم يخلق ولا تستدعي
النجاح من حيث لم يسلس له القياد
ورأينا في سياسته فهماً وعلماً ولكننا لم نر فيها الحيلة
العملية التي هي إلى الغريزة أقرب منها إلى الذكاء
فكان نعم الخليفة لو صادف أوان الخلافة

وكان نعم الملك لو جاء بعد توطيد الملك واستغنائه عن
المساومة والإسفاف، ولكنه لم يأت في أوان خلافة ولا في
أوان ملك موطن ، فحمل أعباء النقيضين ، وأخفق حيث
ينبغي أن يخفق أو حيث يعيبه أن ينجح . . . وتلك آية الشهيد

حكومته

كانت الدولة الإسلامية الناشئة على شفا الخطر في إبان الفتنة الداخلية بين على ومعاوية . ولكنها وقيت منه لأن عوامل الأمان الذي يحيط بها كانت أقوى من عوامل الخطر الذي يهددها ، وتتلخص عوامل الأمان في وقاين اثنين : أحدهما أن الإسلام كان دعوة طبيعية تلقاها العالم وهو مستعد لها مستريح إليها ، فرسخت دعائمه وامتنعت حدوده بعد أعوام قليلة من ظهوره ، وسكن إليه الناس مؤمنين بدوام ظله وشمول عدله ، سواء منهم من دخل فيه ومن أوى إلى حكمه وهو باق على اعتقاده

وثانيهما أن أعداء الإسلام كانوا في شاغل عنه بما أصابهم من الوهن وأحرق بهم من المخاوف ، وربما صح في الفتنة الإسلامية يومئذ ما يصح في كثير من الطوارق التاريخية الكبرى ، وهي أنها لن تكون شرّاً محضاً في جميع عواقبها ، ولا تخلو من الخير على غير قصد من ذويها . فإن هذه الفتنة قد أغرت أعداء الإسلام بالانتظار وأوقعت في روعهم أنهم غنيون عن التحفز والثوب الذي يشق عليهم

جهده وهم في تلك الحالة من الجهد والإعياء . ففنت دولة الروم بهجمات ضعيفة تلقاها معاوية بالجلد والأناة ، وألهمه الله أن يقضى الخلاف بين المسلمين قضاءه وهم وادعون مكفيون بشر القتال . فكان هذا الانتظار الحادع جانباً من جوانب الخير في الفتنة الإسلامية التي فاضت يومئذ بالشروع

* * *

وعلى هذا انقضت أيام عليّ وليس للحكومة الإسلامية سياسة خارجية تحسب من سياسة الفتوح أو سياسة الدفاع أو سياسة المفاوضة والاستطلاع . وكل ما يدور الكلام عليه عن حكومة عليّ فهو من قبيل سياسة الحكم بينه وبين رعاياه ، أو هو السياسة الداخلية كما نسميها في العصر الحديث ومن اليسير أن نعرف سياسة الإمام بينه وبين رعاياه بغير حاجة إلى الإطالة في التعريف وسرد الأمثال لأنها سياسة الرجل الذي شاء القدر أن يجعله فدية للخلافة الدينية في نضالها الأخير مع الدولة الدنيوية فنحن نتخذ ما شئنا من طريقين متقابلين فإذا طريق عليّ هي طريق الخلافة المنزهة ، حين تقابل الدولة الدنيوية بمقابلة الخصم للخصم أو النقيض للنقيض ، أو هي أقرب الطريقين إلى المساواة وأدناها إلى رعاية الضعفاء . فالناس في الحقوق سواء

لا محابة لقوى ولا إجحاف بضعيف ، وقد عمد إلى
القطائع التي وزعت قبله على المقربين والرؤساء فانتزعها من
القابضين عليها وردها إلى مال المسلمين لتوزيعها بين من
يستحقونها على سنة المساواة ، وقال : « والله لو وجدته قد
تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته ، فإن في العدل سعة .
ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق »

وكان دستوره في تحصيل الضرائب المفروضة على الناس
أن النظر في عمارة الأرض أبلغ من النظر في استجلاب
الضريبة . فكان يكتب إلى واليه : « تفقد أمر الخراج بما
يصلح أهله ، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ،
ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم . لأن الناس كلهم عيال على
الخراج وأهله ، وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك
في استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ،
ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد ،
ولم يستقم أمره إلا قليلاً ، وإنما يؤتى خراب الأرض من
إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لإسراف الولاة على الجمع ،
وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر . . . »

أما دستوره في الولاة والعمال فخلاصته ما كتب به إلى
الأشتر النخعي يقول له : « انظر في أمور عمالك فاستعملهم
اختياراً ولا تولهم محابة وأثرة ، فإنهم جماع من شعب الجور

والحيانة ، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام ، فإنهم أكثر أخلاقاً وأصح أخلاقاً وأقل في المطامع إسرافاً ، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً ، ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم أن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك ، ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والعون عليهم ، فإن تعاهدك في السر لأموالهم حدودهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية »

وعلى هذه العناية باستطلاع أحوال الولاة والعمال كان ينهى أشد النهى عن كشف معائب الناس ، أو كما كان يقول في وصية ولاته : « وليكن أبعد رعيته منك وأشنأهم عندك أطلبهم لمعائب الناس . فإن في الناس عيوباً والى الحق من سترها ، فلا تكشف عن غاب عنك منها فإنما عليك تطهير ما ظهر لك »

وكان ينهى عن بطانة السوء مع حثه على اتخاذ العيون والبحوث في وصيته لمحمد بن أبي بكر : « لا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ، ولا جباناً يضعفك عن الأمور ، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجرور ، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله . . . إن شر وزرائك من كان للأشرار

قبلك وزيراً ، ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة ،
فإنهم أعوان الأئمة وإخوان الظلمة ، وأنت واجد منهم خير
الخلف ، ممن له مثل آرائهم ونفادهم وليس عليه مثل آصارهم
وأوزارهم »

ولم ينكر شيئاً من سياسة التولية ثم صنع مثله في عهده ،
على كثرة الإغراء حوله باصطناع التقية والمداراة والهوادة
قليلاً مع الأقرباء وذوى الأخطار

ومن زعم غير ذلك من ناقديه في عصره أو بعد عصره
فإنما هو آخذ في المقارنة بالأشكال والحروف دون البواطن
والغايات

إذ كان مما قيل مثلاً أن عليّاً أقام عبد الله بن عباس
على البصرة وعبيد الله بن العباس على اليمن ومحمد ابن
أبى بكر ابن زوجته على مصر . وهم أقرباؤه وخاصة أهله ،
فهو إذن يصنع ما أنكره على حكومة عثمان من إثارة الأقرباء
بالولايات وإقصاء الآخرين عنها

فبنو هاشم لم يكن لهم متسع لعمل أو ولاية في غير
حكومة الإمام ، ولم يكن للإمام معتمد على غيرهم بعد أن
حاربه قريش وشاعت الفرقة والشغب بين أعوانه من أبناء
الأمصار

وهم مع هذا لم يؤثروا بالولايات كلها ولم يؤثروا بالذى

نخصهم منها ليستغلوه ويجمعوا الثراء من غنائمه وأرزاقه ،
بل كانوا يحاسبون على ما في أيديهم أعسر حساب ، وكانوا
لتضييقه عليهم في المراقبة يتركون ولاياتهم ويستقيلون منها
كما فعل ابن عباس حين هجر البصرة إلى مكة

وقد بلغ من حسابه للولاء أنه كان يحاسبهم على حضور
الولائم التي لا يحمل بهم حضورها . فكتب إلى عثمان بن
حنيف الأنصاري عامله في البصرة : « أما بعد يا ابن حنيف ،
فقد بلغني أن رجلا من فتية أهل البصرة دعاء إلى مأدبة
فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان ،
وما ظننت أنك تعجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيهم
مدعو ، فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم فما اشتبه
عليك علمه فالفظه ، وما أيقنت بطيب وجوهه فقل منه »

واستكثر على شريح قاضيه أن يبنى داراً بثمانين ديناراً ،
وهو يرزق خمسمائة درهم . وحاسب على أقل من هذا من
هو أقل من شريح أمانة في القضاء وحرماً في الدين

فلو أن الإمام اختص أقرباءه بالولايات التي يحاسبون
عليها هذا الحساب لما كان في اختصاصه إياهم مستبيح حق
ولا مستبيح مال ، فكيف وهو لا يختصهم إلا بالقليل منها ،
ولا يختصهم وله مندوحة عنهم ، أو يختصهم وهم دون غيرهم
في القدرة والأمانة !

* * *

وقد انقسمت طريق الخلافة وطريق الدولة الدنيوية في كل أمر من الأمور على عهد الإمام ، ولم تنقسم في مسألة الولاية أو مسألة الاستغلال وكفى

وأكبر ما يذكر من انقسام الطريقين في عهده قيام الفكرة العالمية إلى جانب العصبية بالقبيلة أو بالوحدة الوطنية

فالدولة الدنيوية تشد أزرها بالعصبية الجنسية ، والخلافة الدينية تشد أزرها بالإخاء بين الشعوب وبطلان الفوارق بين الأجناس

وقد كانت القبيلة من أنصار الإمام تقاتل القبيلة من أنصار معاوية في سبيل الرأي والعقيدة وكان أنصار الإمام أبداً من الفرس والمغاربة والمصريين أكثر من أنصاره بين قريش خاصة وبين بني هاشم على الأخص ، وبين قبائل العرب جميعاً على التعميم

وهذا الامتزاج بين الفكرة العالمية وبين إمامة عليّ أو خلافته هو أقطع الأدلة على الوحدة بين أوانه وأولان الخلافة ، فإذا ذهب هذا وجب أن يذهب ذاك ، أيّاً كانت السياسة المتوخاة وبالغاً ما بلغ نصيبها من السداد والصواب

* * *

ولنا أن نعم هذا الحكم الإنساني في كل شأن من شؤون

الحكومة قضى به على " في عهده أو عهود الخلفاء من قبله
فالروح الإنسانى هو قوام الحكومة الإمامية كما ينبغى
أن يكون ، وهو قوامها كما كانت على يديه جهد الطاقة
الآدمية ، وهى طاقة لها ما لها من حدود

جىء إلى عمر بن الخطاب بامرأة زانية يشتبه فى حملها ،
فاستفتى الإمام فأفتى بوجوب الإبقاء عليها حتى تضع جنينها ،
وقال له : إن كان لك سلطان عليها فلا سلطان لك على ما فى
بطنها

وانتزع امرأة من أيدي الموكلين بإقامة الحد عليها .
وسأله عمر فقال : أما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول :
رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصغير
حتى يكبر ، وعن المبتلى حتى يعقل ؟ قال : بلى . قال :
فهذه مبتلاة بنى فلان . فلعله أتاها ذهابها ، قال عمر :
لا أدرى . قال : وأنا لا أدرى . فترك رجها للشك فى عقلها

وأتى عمر بامرأة أجهدا العطش فمرت على راع فاستسقته
فأبى أن يسقيها إلا أن تتمكنه من نفسها . ففعلت . فشاور
الناس فى رجها ، فقال على : هذه مضطرة إلى ذلك .
فخلت سبيلها

وهذه أمثلة قليلة من أمثلة كثيرة فى القصص وتفسير

الشريعة

إلا أنه قد حاد عن هذه السنة في أمر واحد خالفه فيه بعض فقهاء عصره ، ومنهم ابن عمه عبد الله بن عباس وذلك هو إحراقه الروافض الذين عبدوه ووصفوه بصفات الإلهية وأبوا أن يتوبوا عن ضلالتهم مرة بعد مرة ، وقيل إنهم أصروا على عنادهم وهم يحرقون ، فاتخذوا من تعذيبه لهم بالنار دليلاً على أنه هو الإله المعبود . إذ لا يعذب بالنار إلا الله

فهؤلاء المفسدون المفتونون قد استحقوا عقوبة الموت بقضاء الشريعة وقضاء الدولة التي لا يقوم لها نظام على هذه الضلالة ، ولكن الإحراق بالنار صرامة لا توجهها ضرورة العقاب ، وليس في اجتنابها خطر على الشريعة ولا على النظام

* * *

وكان الإمام يذكر أبدأً في حكومته أن الحقوق العامة لها شأن لا ينسى مع حقوق الأفراد

ومن ذلك ما نقله الطبري عن بعض الأسانيد حيث قال :
« رأيت علياً عليه السلام خارجاً من همدان فرأى فتيين يقتتلان ففرق بينهما ، ثم مضى فسمع صوتاً : يا غوثاً بالله . فخرج يحضر نحوه حتى سمعت خفق نعله وهو يقول : أتاك الغوث . فإذا رجل يلزم رجلاً فقال : يا أمير المؤمنين . بعت هذا ثوباً بتسعة دراهم وشرطت عليه أن لا يعطيني مغموزاً ولا مقطوعاً

أنته بهذه الدراهم ليبدلها لى فأى فلزمته فلطمنى . فقال :
 أبدله ، ثم قال : بينتك على اللطمة . فأثاه بالبينة . قال :
 دونك فاقتص . قال : إنى قد عفوت يا أمير المؤمنين .
 قال إنما أردت أن أحتاط فى حقك . ثم ضرب الرجل تسع
 درات ، وقال : هذا حق السلطان »

وكان يكرر هذا الحكم فى كل ما شابهه من أمثال هذا
 العدوان ، وهو أشبه المذاهب بمذهب الحكومات العصرية
 فى القصاص

ويقال الكثير عن مناهج الإمام فى الحكومة وسياسة
 الرعية ، مما يغنى فيه هذا الإجمال عن التوسع فى التفصيل
 ولكن الذى لا ينسى فى سياق الكلام عن الإمامة
 والدعوة العالمية أنه رضى الله عنه كان أول من خرج بالعاصمة
 من المدينة إلى أرض غير أرض الحجاز ، وهو الحجازى
 سليل الحجازيين

وقد اختار الكوفة فكانت أوفق عاصمة للإمامة العالمية
 فى تلك المرحلة من مراحل الدولة الإسلامية ، لأنها كانت
 ملتقى الشعوب من جميع الأجناس ، وكانت مثابة التجارة بين
 الهند وفارس واليمن والعراق والشام ، وكانت العاصمة الثقافية
 التى ترعرعت فيها مدارس الكتابة واللغة والقراءات والأنساب
 والأفانين الشعرية والروايات

الإمام والنبي والصحابة

أحاديث النبي عليه السلام في فضل عليّ ومحبته متواترة في كتب الحديث المشهورة ، منها ما انفرد به وهو حديث الخيمة الذي رواه الصديق رضي الله عنه حيث قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خيم خيمة وهو متكئ على قوس عربية ، وفي الخيمة عليّ وفاطمة والحسن والحسين فقال : معشر المسلمين . أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة حرب لمن حاربهم ، وليّ لمن والاهم ، لا يحبهم إلا سعيد الجدد طيب المولد ، ولا يبغضهم إلا شقي الجدد ردىء الولادة »

ومنها ما اشترك فيه وغيره وهو الذي روته السيدة عائشة حيث سئلت : « أى الناس أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت : فاطمة ، فقيل : من الرجال ؟ قالت زوجها . إن كان ما علمت صوّماً قوَّاماً »

وقد روى حديث في نذا المعنى حيث سئل رسول الله عن أحب الناس إليه فقال : من النساء عائشة ومن الرجال أبوها ولا تناقض بين الحديثين ، إذ كانت السيدة عائشة هي التي تروى الحديث الأول وتخرج من كلامها كما يخرج المتكلم

ن عموم كلامه ، أو كانت تروى عن أقرباء النبي من لحمه ودمه ، فتقول ما تعلم عن غيرها
وهذان نموذجان من الأحاديث النبوية في فضل علي وعجته
ومنزله عند الله ونبيه ، وهي تعد بالعشرات

وأصحاب المذاهب يختلفون في تأويل هذه الأحاديث وفي
أسانيدها ويوجهونها حيث اتجهوا من التشيع للإمام أو التشيع
عليه ، وهو شرح طويل لا يهمننا منه هنا أن ننصر فيه فريقاً
على فريق ، أو نرجح مذهباً على مذهب . إذ ليس فهم الإمام
موقوفاً على تغليب أى الفريقين وتعزيز أى المذهبين ، وفهم
الإمام على حقيقته النفسية والتاريخية هو كل ما نعينه

فهما يختلف الرواة في تأويل الأحاديث فالذى يسمعك أن
تجزم به من وراء اختلافهم أن علياً كان من أحب الناس إلى
النبي ، إن لم يكن أحبهم إليه على الإطلاق

لقد كان النبي عليه السلام يغمر بالحب كل من أحاط به
من الغرباء والأقربين . فأى عجب أن ينحس بالحب من بينهم
إنساناً كان ابن عمه الذي كفله وحماه ، وكان ربيبه الذي أوشك
أن يتبناه ، وكان زوج ابنته العزيزة عنده ، وكان بديله في
الفراش ليلة الهجرة التي همّ المشركون فيها بقتل من يبيت في
قرأشه ، وكان نصيره الذي أبلى أحسن البلاء في جميع غزواته ،
وتلميذه الذي علم من فقه الدين ما لم يعلمه ناشئ في سنه ؟ !

وما لا خلاف فيه كذلك أنه عليه السلام كان لا يكتفى بحبه إياه ، بل كان يسره ويرضيه أن يحبه إلى الناس ، وكان يسوءه ويغضبه أن يسمع من يكرهه ويحجوه

بعث رسول الله علياً في سرية ليقبض الحسن ، فاصطفى منه سبية واتفق أربعة من شهود السرية أن يبلغوا ذلك إلى رسول الله . وكان المسلمون إذا قدموا من سفر بدءوا بالرسول فسلموا عليه وأبلغوه ما عندهم ثم انصرفوا إلى رحالهم . فقام أحد الأربعة فحدث الرسول بما رأى فأعرض عنه ، وظن أصحابه أنه لم يسمعه فتناوبوا الحديث واحداً بعد واحد في معنى كلامه . فلما فرغ الرابع من حديثه أقبل عليه رسول الله وقد تغير وجهه فقال : ما تريدون من علي ؟ ما تريدون من علي ؟ ما تريدون من علي ؟ علي مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي . وقال لأحدهم في روايات أخرى : أتبغض علياً ؟ قال : نعم ! قال : لا تبغضه فإن له في الخمس أكثر من ذلك ، أي أكثر من السبية التي اصطفاه . . . لا تبغضه ، وإن كنت تحبه فازدد له حبا

وبعث رسول الله علياً إلى اليمن فسأله جماعة من أتباعه أن يركبهم إبل الصدقة ليريحوا إبلهم ، فأبى . فشكوه إلى رسول الله بعد رجعتهم ، وتولى شكايته سعد بن مالك بن الشهيد . فقال : يا رسول الله ، لقينا من علي من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق... ومضى يعدد ما لقيه ، حتى إذا كان في وسط كلامه ضرب

رسول الله على فخذيه وهتف به : « يا سعد بن مالك بن الشهيد .
بعض قولك لأخيك عليّ ؟ فوالله لقد علمت أنه جيش في سبيل
الله »

وشكا بعض الناس مثل هذه الشكوى ، فقام رسول الله فيهم
خطيباً يقول لهم : « أيها الناس : لا تشكوا عليّ . فوالله إنه لجيش
في ذات الله »

ويلوح لنا أن النبي عليه السلام كان يحب عليّاً ويحببه إلى
الناس ليمهد له سبيل الخلافة في وقت من الأوقات ، ولكن على
أن يختاره الناس طواعية وحباً لا أن يكون اختياره حقاً من حقوق
لعصبة الهاشمية ، فإنه عليه السلام قد اتقى هذه العصبية بجهد
اتقائه ولم يحذر خطراً على الدين أشد من حذره أن يحسبها الناس
سبيلاً إلى الملك والدولة في بني هاشم ، وقد حرم نفسه الشريفة
حظوظ الدنيا وأقصى معظم بني هاشم عن الولاية والعمالة لينفي
هذه الظنة ويدع الحكم للناس يختارون من يرضونه له بالرأى
والمشيئة

فالتزم في التمهيد لعلّ وسائل ملموحة لا تتعدى التدريب
والكفالة إلى التقديم والوكالة : أرسله في سرية إلى فدك لغزو
قبيلة بني سعد اليهودية ، وأرسله إلى اليمن للدعوة إلى الإسلام ،
وأرسله إلى منى ليقرأ على الناس سورة براءة ويبين لهم حكم الدين
في حج المشركين وزيارة بيت الله ، وأقامه على المدينة حين خرج

المسلمون إلى غزوة تبوك ، ولم يفته مع هذا كله أن يلمح الخفوة بينه وبين الناس ، وأن يكله إلى السن تعمل عملها مع الأيام ، ويكلهم في شأنه إلى ما ارتضوه ، عسى أن تسنح الفرصة لمزيد من الألفة بينهم وبينه

هذه فيما نعتقد أصح علاقة يتخيلها العقل وتنبئ عنها الحوادث بين النبي وابن عمه العظيم
أما العلاقة بين علي وسائر الصحابة من الخلفاء وغير الخلفاء فهي علاقة الزمالة المرعية والتنافس الذي يشوب إلى الصبر والتجمل والتقية

فمن المعلوم أن علياً كان يرى أنه أحق بالخلافة من سابقيه ، وأنه لم يزل مدفوعاً عن حقه هذا منذ انتقل النبي عليه السلام إلى الرفيق الأعلى. واحتج المهاجرون على الأنصار في أمر الخلافة بالقرابة منه صلوات الله عليه . قال : « ولما احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله صلى الله عليه وسلم فلجوا^(١) عليهم . فإن يكن الفلج به فالحق لنا دونكم ، وإن يكن بغيره فالأنصار على دعواهم »

كذلك كان رأيه في الخلافة يوم بويع بها الصديق ، ثم بويع بها الفاروق ، ثم بويع بها عثمان
وجاءت قضية الإرث بعد قضية الخلافة في أوائل عهد

(١) فلجوا : أى انتصروا عليه .

الصديق فباعدت الفرجة بين القلوب وأطالت العزلة بين الأصحاب ،
 وخلاصة هذه القضية أن فاطمة والعباس رضى الله عنهما طلبا
 ميراثهما في أرض فذك وسهم خبير فذكر لهما الصديق حديث
 النبي عن إرث الأنبياء ، ونصه في روايته « نحن معاشر الأنبياء ،
 لا نورث . ما تركناه فهو صدقة . إنما يأكل آل محمد من هذا
 المال »

فغضبت فاطمة ولم تكلمه حتى ماتت ، ودفنها على ليلا
 ولم يؤذن بها أبا بكر . وقيل إن علياً تخلف عن البيعة ستة أشهر
 إلى ما بعد وفاتها . ثم أرسل إلى أبي بكر أن اثنتا ولا يأتنا معك
 أحد . وتلقاه وعنده بنو هاشم فقال : « إنه لم يمنعنا من أن
 نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضيلتك ، ولا نفاسة عليك بخير ساقه
 الله إليك ، ولكننا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً فاستبددتم
 به علينا »

ومع هذا اليقين الراسخ عنده في حقه وحق غيره نرجع إلى
 سيرته وأحاديثه فنرى ولا ريب أنها أقل ما تشعر به النفس
 الإنسانية في هذه الحالة من النفرة والنقمة ، ولا نجد في خطبه
 ومساجلاته التي ذكر فيها الخلفاء السابقين كلمة تستغرب من
 مثله أو يتجاوز بها حد الحجة التي تنهض بحقه . بل الغريب أنه
 لزم هذا الحد ولم يجاوزه إلى جمحة غضب تغلت معها بواد
 اللسان ، ولو جاوزه لكان عاذروه أصدق من لاثميه

وقد أعان أسلافه الثلاثة برأيه وعمله ، وجاملهم مجاملة
الكريم بمسلكه ومقاله . ولم يبدر منه قط ما ينم على كراهية
وضغن مكتوم . ولكنه كان يأنف أن ينكر هذه الكراهية إذا
رمى بها كما يأنف العزيز الكريم . وفي ذلك يقول في خطاب إلى
معاوية : « ذكرت لإبطائي عن الخلفاء وحسدى إياهم والبغى
عليهم ، فأما البغى فمعاذ الله أن يكون ؟ وأما الكراهة لهم فوالله ما
أعتذر للناس من ذلك »

وأولى أن يقال إن دلائل وفاته في حياتهم وبعد ذهابهم
كانت أظهر من دلائل جفائه . فإنه احتضن ابن أبي بكر
محمداً أو كفله بالرعاية ورشحه للولاية ، حتى حسب عليه
وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله ، وقد سمي ثلاثة من أبنائه
بأسماء الخلفاء الذين سبقوه : وهم أبو بكر وعمر وعثمان
ويخطئ جداً من يتخذ فتواه في مقتل الهرمزان دليلاً على
كراهته لعمر أو نقمة منه في أبنائه . فقد أسرع عبيد الله بن
عمر إلى الهرمزان فقتله انتقاماً لأبيه ولم ينتظر حكم ولى الأمر فيه
ولا أن تقوم البيعة القاطعة عليه . فلما استفتى في هذه القضية
أفتى بالقصاص منه ، ولم يغير رأيه حين تغير رأى عثمان فأعفاه
من جريرة عمله . لأنه هو الرأى الذى استمدت من حكم الشريعة
كما اعتقده وتحراه ، وبهذا الرأى دان قاتله عبد الرحمن بن
ملجم ، فأوصى وكرر الوصاة ألا يقتلوا أحداً غيره ، لمظنة المشاركة

بني وبين رفقاته في التآمر عليه

* * *

ولأنك لن تجد إنساناً أعرف بالعهد ولا أصون له ممن يتذكره في حومة الحرب ويرى أن التذكير به يترع السلاح من الأيدي ويعود بالخصمين المتناجزين إلى الصفاء والإخاء

فما حارب عليّ عدواً له سابقة مودة به إلا أن يذكره بتلك السابقة ويستنجد الصداقة الأولى فيه على العداوة الحاضرة

ومن ذلك موقفه مع الزبير وطلحة في وقعة الجمل وهما ملحان في حربه وإنكار بيعته

فخرج حاسراً لا يحتمي بدرع ولا سلاح ، ونادى : يا زبير ؟ اخرج إلى . فخرج إليه شاكاً في السلاح ، وسمعت السيدة عائشة فصاحت : واحرباه ! إذ كان خصم عليّ مقضياً عليه بالموت كائناً ما كان حظه من الشجاعة والخبرة بالنضال

فلما تقابل عليّ والزبير اعتنقا ، وعاد عليّ يسأله : ويحك يا زبير ! ما الذي أخرجك ؟ قال : دم عثمان

قال : قتل الله أولانا بدم عثمان

وجعل يذكره عهوده وعهود رسول الله ، ومنها مقالة النبي : والله ستقاتله وأنت له ظالم ، فاستغفر الزبير وقال : لو ذكرتها ما أخرجت

* * *

ولما وقف على جثة طلحة بكى أحر بكاء، وجعل يمسح التراب عن وجهه وهو يقول: عزيز على أن أراك أبا محمد مجدلاً تحت نجوم السماء، وتمنى لو قبضه الله قبل اليوم هذا بعشرين سنة

ومثل على لا يرزق صداقة الألفاء، لأنه من أصحاب المزايا التي تغرى بالمنافسة أو بالحسد ولا تحميها المنافع ولا المسايرة والمداواة. فهو شجاع، عالم، بليغ، ذكي، موصول النسب بأعرق الأرومات، فإن لم يحسد هذا فمن يحسد؟ وإن حسد فما الذي يفل من غرب حاسديه؟ وما الذي ينفع بهم إلى القصد في عدائه والتأليب عليه؟

لأنهم يستبعدون يومه في الإمارة والسلطان، وإذا استقربوا يومه في الإمارة والسلطان فلا مطمع لهم في النفع على يديه وهو قوام بالقسط على الأموال والحقوق، فنصيبه إذن منهم نصيب المحسود الذي لا رجاء له في هواده من حاسديه، وليس أحق قد من الناس على صاحب عظمة لم يطعموا في نفعه ولم يزلوا على طمع في النفع من خصومه، وبليته بهم أكبر وأدهى حين لا يصطنع الدهان ولا يعتمد معهم إلى الختل والروغان... وعلى أنه لو داهنهم وراوغهم لما اغتفروا له ذنب العظمة التي لا تحميها حماية من طمع أونكاية، أو كما قال الحكيم الغربي: «إن نسي أنه أسد لم ينسوا أنهم كلاب»

ثقافته

السنة الخلق أقلام الحق
كلمة سائغة ليس أصدق منها إن صدقت ، وهي صدق
في كثير من الأحيان
من هذه الألقاب الشائعة لقب الإمام الذي اختص به عليّ
بن جميع الخلفاء الراشدين ، والذي يطلق إذا أطلق فلا ينصرف
إلى أحد غيره ، بين جميع الأئمة الذين سمو بهذه السمة من
سابقه ولاحقه

ولم وليس هو بفرد في الإمامة بجملة معانيها ؟
ألم يكن الصديق إماماً كعليّ ؟ ألم يكن الفاروق إماماً كعليّ ؟
ألم يكن عثمان إماماً كعليّ ؟ ألم يكونوا خلفاء راشدين إذا
قصدت الخلافة الراشدة بعد النبوة ؟ بلى ؛ كانوا أئمة مثله وسبقوه
في الإمامة

ولكن الإمامة يومئذ كانت وحدها في ميدان الحكم بغير
منازع ولا شريك ، ولم يكتب لأحد منهم أن يحمل علم
الإمامة ليناضل به علم الدولة الدنيوية ، ولا أن يتحيز بعسكر
يقابله عسكر ، وصفة تناوبها صفة ، ولا أن يصبح رمزاً للخلافة

يقترن بها ولا يقترن بشيء غيرها . فكلهم إمام حيث لا اشتباه ولا التباس ، ولكن الإمام بغير تعقيب ولا تذييل هو الإمام كلما وقع الاشتباه والالتباس

وذاك هو علي بن أبي طالب كما لقبه الناس وجرى لقبه على الألسنة فعرفه به الطفل وهو يسمع أماديحه المنغومة في الطرقات ، بغير حاجة إلى تسمية أو تعريف

وخاصة أخرى من خواص الإمامة ينفرد بها علي ولا يجاريه فيها إمام غيره ، وهي اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الإسلامية منذ وجدت في صدر الإسلام ، فهو منشئ هذه الفرق أو قطبها الذي تدور عليه . وندرت فرقة في الإسلام لم يكن علي معلماً لها منذ نشأتها ، أو لم يكن موضوعاً لها ومحوراً لمباحثها ، تقول فيه وترد على قائلين .

وقد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد ، كما اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الفقه والشرعة ، وعلماء الأدب والبلاغة . فهو أستاذ هؤلاء جميعاً بالسند الموصول فالإمام أحق لقب به ، وهو أحق الأئمة بلقب الإمام

* * *

ولقد كانت له آية من آيات الشهداء في كثير من صفاته ، وكثير من معارض حياته ، وطوارئ أوقاته وكانت له في الإمامة آية أخرى من هذه الآيات

فآية الشهداء أنهم يبخسون حقهم في الحياة ، ثم يعطون فوق حقوقهم بعد الممات .

فقل أن سمعنا بعلم من العلوم الإسلامية أو العلوم القديمة لم ينسب إليه ، وقل أن تحدث الناس بفضل لم ينحلوه إياه ، زل أن توجه الشناء بالعلم إلى أحد من الأوائل إلا كانت له مساهمة فيه

نحلوه ديواناً من الشعر فيه عشرات من القصائد وليس بينها إلا عشرات من الأبيات تصح نسبتها إليه

ونحلوه علماً سموه علم « الجفر » وزعموا أنه علم النجوم والأزياج الذى يكشف عن حوادث الغيب إلى آخر الزمان ونحلوه مقامات تخلو من أشيع الحروف في الكلمات وهو حرف الألف ، ولا يعقل أن تظهر أشباه هذه المقامات قبل عصر الصناعة في أيام العباسيين وما تلاها

ونحلوه من مصطلحات علم الكلام أقوالاً لم تعرف ولا يعقل أن تعرف قبل ترجمة المفردات الإغريقية بما لها من غرائب النحت والاشتقاق

وبعض ما نحلوه يزيد قدره ويرفعه شأنه ألا تصح نسبته إليه وبعض ما بقى له — غير مشكوك فيه ولا مختلف عليه —

كاف لتعظيم قدره وإثبات إمامته في عصره ، وبعد عصره وعندنا أنه رضى الله عنه كان ينظم الشعر ويحسن النظر فيه ،

وكان نقده للشعراء نقد عليم بصير يعرف اختلاف مذاهب القول واختلاف وجوه المقابلة والتفضيل على حسب المذاهب ، ومن يبصره بوجوه المقابلة بينهم أنه سئل : من أشعر الشعراء ؟ قال : « إن القوم لم يجرؤوا في حلقة تعرف الغاية عند قصبتها . فإن كان ولا بد فالملك الضليل »

وهذا فيما نعتقد أول تقسيم لمقاييس الشعر على حسب (المدارس) والأغراض الشعرية بين العرب . فلا تكون المقابلة إلا بين أشباه وأمثال ولا يكون التعميم بالتفضيل إلا على التغليب لكنه رضى الله عنه لم يرزق ملكة الإجادة في شعره ، والنبي عليه السلام يرى ذلك حيث سأله أن يأذن لعليّ في هجاء المشركين فقال : ليس بذاك . وأحاطهم إلى حسان بن ثابت ، ونذب له من يبصره بمثالب القوم

أما كتاب الجفر أو علم الجفر فالقول الفصل فيه أقرب من القول الفصل في جميع ما نحله وأضافوا إليه . فثل على في تقواه وفضله لا يشتغل بعلم مزعوم هو السحر القديم بعينه . وليس هو مما يليق بورعه ولا ذكائه ، وقد نهى وشدد النهي عن تعلم النجوم واستطلاع الغيب بأمثال هذه العلوم ، ومن المحقق الذي لا خلجة فيه من الشك عندنا أن النبوءات التي جاءت في نهج البلاغة عن الحجاج بن يوسف وفتنة الزنج وغارات التتار وما إليها هي من مدخول الكلام عليه ، وما أضافه النساخ إلى

الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بزمن قصير أو طويل
ولا نجزم مثل هذا الجزم في أمر المقامات التي خلت من
بعض الحروف ، لأن العقل لا يمنعها قطعاً كما يمنع استطلاع
ايب المفصل من أزياج النجوم ، ولكننا نستبعد جداً أن
تكون هذه المقامات من كلام الإمام لاختلاف الأسلوب
واختلاف الزمن وحاجة النسبة هنا إلى سند أقوى من السند الميسر
لنا بكثير

وكذلك نستبعد أنه قال لكاتبه ليظهر علمه بغريب اللغة :
« ألصق روائفك بلحبوب وخذ المزبر بشناترك واجعل حندورتك
إلى قيهلى حتى لا أنفى نفية إلا أودعتها مجمطة جلجلانك »
أى « ألصق مقعدك بالأرض وخذ القلم بما بين أصابعك
واجعل عينيك إلى وجهى حتى لا ألفظ بلفظة إلا وعيتها فى سواد
قلبك »

فإن الولى بإظهار العلم بالغريب بدعة لم تعرف فى صدر
الإسلام ، ولم يلتفت الناس إلى ادعائها إلا بعد استعجام العرب
ونذرة العارفين

* * *

إلا أننا نسقطها جميعاً فلا نسقط بها فضلاً ترجح به موازين
الإمام فى حساب الثقافة ، بل نحسبها فضلاً — إن شئنا — ونسقطها
فبقى له بعدها السهم الراجع فى تلك الموازين

تبقى له الهداية الأولى في التوحيد الإسلامي والقضاء الإسلامي والفقهاء الإسلاميين وعلم النحو العربي وفن الكتابة العربية ، مما يجوز لنا أن نسميه أساساً صالحاً ، الموسوعة المعارف الإسلامية في جميع العصور ، أو يجوز لنا أن نسميه موسوعة المعارف الإسلامية كلها في الصدر الأول من الإسلام

وتبقى له مع هذا فرائد الحكمة التي تسجل له في ثقافة الأمم عامة كما تسجل له في ثقافة الأمة الإسلامية ، على تباين العصور

ففي كتاب نهج البلاغة فيض من آيات التوحيد والحكمة الإلهية تستع به دراسة كل مشغل بالمعتقد وأصول التأليه وحكمة التوحيد

وربما تشكك الباحث في نسبة بعضها إلى الإمام لغلبة الصيغة الفلسفية عليها وامتزاجها بالآراء والمصطلحات التي اقتبست بعد ذلك من ترجمة الكتب الإغريقية والأعجمية ، ولا سيما الكلام على الأضداد والطبائع والعدم والحدود والصفات والموصوفات ؛ ولكن الذي يقرؤه الباحث ولا يشك في نسبته إلى الإمام أو في جواز نسبته إليه قسط واف لتحقيق رأى القائلين بسبق الإمام في مضمار علم الكلام ، واعتراف المعترفين له بالأستاذية الرشيدة لكل من لحق به من أصحاب الآراء والمقولات ، وهو على جملة خير ما يعرف به المؤمن ربه وينزه به الخالق في

كماله ، ومن أمثلته قوله : « الحمد لله الذى لم يسبق له حال
حالا ، فيكون أولاً قبل أن يكون آخراً ، ويكون ظاهراً قبل أن
يكون باطناً ، كل مسمى بالوحدة غيره قليل ، وكل عزيز
غيره ذليل ، وكل قوى غيره ضعيف ، وكل مالك غيره مملوك ،
وكل عالم غيره متعلم ، وكل قادر غيره يقدر ويعجز ، وكل
سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ، ويصمه كبيرها ،
ويذهب عنه ما بعد منها ، وكل بصير غيره يعمى عن خفى
الألوان ولطيف الأجسام ، وكل ظاهر غيره باطن ، وكل
باطن غيره غير ظاهر ، لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان
ولا تخوف من عواقب زمان ، ولا استعانة على من شاور ،
ولا شريك مكائر ، ولا ضد منافر ، ولكن خلّاق مربوبون وعباد
داخرون — أى ضارعون — لم يحلل فى الأشياء فيقال هو فيها
كائن ، ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن ، لم يؤده خلق ما ابتدأ
ولا تدبير ما ذرأ ، ولا وقف به عجز عما خلق ، ولا وبلت عليه
شبهة فيما مضى وقدر ، بل قضاء متقن ، وعلم محكم وأمر مبرم ... »
أما القضاء والفقه فالمشهور عنه أنه كان أقضى أهل زمانه
وأعلمهم بالفقه والشريعة ، أو لم يكن بينهم من هو أقضى منه
وأفقه وأقدر على إخراج الأحكام من القرآن والحديث والعرف
المأثور ، وكان عمر ابن الخطاب يقول كلما استعظم مسألة من
مسائل القضاء العويصة : قضية ولا أبا حسن لها : لأنه كان فى

هذه المسائل يتجاوز التفسير إلى التشريع كلما وجب الاجتهاد
بالرأى الصائب والقياس الصحيح

وفي أخباره ما يدل على علمه بأدوات الفقه كعلمه بنصوصه
وأحكامه، ومن هذه الأدوات علم الحساب الذي كانت معرفته به
أكبر من معرفة فقيه يتصرف في معضلات المواريث، لأنه
كان سريع الفطنة إلى حيله التي كانت تعد في ذلك الزمن ألغازاً
تكد في حلها العقول، فيقال إن امرأة جاءت إليه وشكت إليه
أن أخاها مات عن ستمائة دينار ولم يقسم لها من ميراثه غير دينار
واحد. فقال لها: لعله ترك زوجة وابنتين وأماً وأثنى عشر أخاً
وأنت؟ فكان كما قال

وسئل يوماً في أثناء الخطبة عن ميت ترك زوجة وأبوين
وابنتين. فأجاب من فوره: صار ثمنها تسعاً. وسميت هذه
الفريضة بالفريضة المنبرية لأنه أفق بها وهو على منبر الكوفة
وفي هذه الإجابات دليل على الذكاء وسرعة البديهة فضلاً
عن الدلالة الظاهرة على العلم بالمواريث والحساب

ولذا قيل في قضائه إنه لم يكن أقضى منه بين أهل زمانه
صح أن يقال في علم النحو إنه لم يكن أحد أوفر سهماً في إنشاء
هذا العلم من سهمه. وقد تواتر أن أبا الأسود الدؤلي شكاً إليه
شيوخ اللحن على السنة العرب فقال له: اكتب ما أُملي عليك،
ثم أملاه أصولاً منها: إن كلام العرب يتركب من اسم وفعل

يحرف . فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل . وإن الأشياء ثلاثة ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر ، وإنما يتفاوت العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر . بنى اسم الإشارة على قول بعض النحاة . ثم قال لأبي الأسود : انح هذا النحو يا أبا الأسود . فعرف العلم باسم النحو من يومها وهذه رواية تخالفها روايات شتى تستند إلى المقابلة بين اللغات الأخرى في اشتقاق أصولها النحوية ولا سيما السريانية واليونانية ، ولكن الروايات العربية لا تنتهى بنا إلى مصدر أرجح من هذا المصدر ، وغيرها من الروايات الأجنبية والفروض العلمية لا يمنع عقلاً أن يكون الإمام أول من استنبط الأصول الأولى لعلم النحو العربى من مذاكرة العلماء بهذه الأصول بين أبناء الأئمة التى تغشى الكوفة وحواضر العراق والشام ، وهم هنالك غير قليل ، ولا سيما السريان الذين سبقوا إلى تدوين نحوهم ، وفيه مشابة كبيرة لنحو اللغة العربية

وليس الإمام على أول من كتب الرسائل وألقى العظات وأطال الخطب على المنابر فى الأمة الإسلامية ولكنه ولا ريب أول من عالج هذه الفنون معالجة أديب ، وأول من أضفى عليها صبغة الإنشاء الذى يقتدى به فى الأساليب . لأن الذين سبقوه كانوا يصوغون كلامهم صياغة مبلغين لا صياغة

منشئين ، ويقصدون إلى أداء ما أرادوه ولا يقصدون إلى فن الأداء وصناعة التعبير ، ولكن الإمام علياً تعلم الكتابة صغيراً ودرس الكلام البليغ من روايات الألسن وتدوين الأوراق ، وانتظر بالبلاغة حتى خرجت من طور البداهة الأولى إلى طور التفنن والتجويد ، فاستقام له أسلوب مطبوع مصنوع هو فيما نرى أول أساليب الإنشاء الفني في اللغة العربية ، وأول أسلوب ظهرت فيه آثار دراسة القرآن والاستفادة من قدوته وسياقه ، وتأتى له بسليقته الأدبية أن يأخذ من فحولة البداوة ومن تهذيب الحضارة ، ومن أنماط التفكير الجديد الذي أبدعته المعرفة الدينية والثقافة الإسلامية . فديوانه الذي سمي « نهج البلاغة » أحق ديوان بهذه التسمية بين كتب العربية ، واشتماله على جزء مشكوك فيه لا يمنع اشتماله على جزء صحيح النسبة إليه صحيح الدلالة على أسلوبه ، وربما كانت دلالة الأخلاق والمزاج فيه أقوى وأقرب إلى الإقناع من دلالة الأسانيد التاريخية ، لأن طابع « الشخصية العلوية » فيه ظاهر من وراء السطور ومن ثنايا الحروف ، يوحى إليك حيناً وعيته أنك تسمع الإمام ولا تسمع أحداً غير الإمام ، ويعز عليك أن تلمح فيه غرابة بين صاحب التاريخ وصاحب الكلام

على أننا نبالغ ما نبالغ في تمحيص المنحول وغير المنحول من أقوال الإمام ومن فنون ثقافته العامة ثم تبقى لنا بقية تسمح لنا ،

بل توجب علينا ، أن نسأل : كيف يتسنى العلم بهذا لأى كان من الناس فى مثل ذلك الزمان ؟

والسؤال لا بد منه ، ولا نظن قارئاً من قراء تاريخ الإمام لم يخطر هذا السؤال بباله ولم يرد على لسانه

ولكن لا بد معه من تصحيح الباعث عليه لتصحيح الجواب عنه بعد ذلك ، فالباعث عليه أننا نبالغ فى تجريد البداوة العربية من الصلات المعقولة بالثقافة العالمية ، سواء كانت من ثقافة العلم والدرس أو ثقافة التواتر والتلقين

لكن البداوة العربية لم تكن فى الواقع معزولة عن ثقافة الأمم المحيطة بها تلك العزلة التى تخطر لنا للوهلة الأولى فقد كانت على اتصال بعقائد الهند وفارس والروم ، وكانت للمعارف الإنسانية أشعتها التى تتخلل الجزيرة العربية من قديم العصور

* * *

على أن هذه الفنون من الثقافة — أو جلتها — إنما تعظم بالقياس إلى عصرها والجهود التى بذلت فى بدايتها
فحصة الإمام من علم النحو — مثلاً — عظيمة لأن الابتداء بها أصعب من تحصيل المجلدات الضخام التى دونها النحاة بعد تقدم العلم وتكاثر الناظرين فيه
وهكذا يقال فى الحساب والمسائل العلمية التى من قبيله ،

فلا يجوز لنا أن نقيسها بمقياس العصر الحاضر وهي في ابتدائها
أصعب جداً منها في أطوارها التي لحقت بها بعد نمائها واستفاضة
البحث فيها

أما فن الثقافة الذي يقاس بمقياس كل زمن فإذا هو عظيم
في جميع هذه المقاييس ، قليل الفوارق بين البدايات منه
والنهايات ، فذلك هو فن الكلم الجامعة أو فرائد الحكمة التي قلنا
أنفاً لأنها تسجل له في ثقافة الأمم عامة كما تسجل له في ثقافة
الأمة الإسلامية ، على تباين العصور

فالكلم الجوامع التي رويت للإمام طراز لا يفوقه طراز في
حكمة السلوك على أسلوب الأمثال السائرة
وقد قال النبي عليه السلام : « علماء أمتي كأنبياء بني
إسرائيل »

فهذا الحديث الشريف أصدق ما يكون على الإمام عليّ في
حكيمته التي تقارن بحكم أولئك الأنبياء
فهي من طراز الحكم الماثورة عن أشهر أولئك الأنبياء بالمثل
السائر وهو سليمان بن داود

يزيد عليها أنها أبدع في التعبير وأوفر نصيباً من ذوق
الجمال كقوله مثلاً : « نفس المرء خطاه إلى أجله »
أو قوله : « من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة » . . .
أو قوله : « المرء مخبوء تحت لسانه » أو قوله : « الحلم عشيرة » .

قوله : « من لان عوده كثفت أغصانه » أو قوله : « كل رعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع » إلى أشباه هذه التعبيرات الحسان التي تحار فيها أى مزاياها أفضل وأقوم : صدق المعنى ، أو بلاغة الأداء ، أو جودة الصناعة

وبعض أقواله ينضح بدلائل « الشخصية » التي تلازم صاحب الفن الأصيل فتلبس معانيه لباساً من خوالج نفسه وأحداث زمانه ، كما قال : « صواب الرأى بالدول : يقبل بإقبالها ويذهب بذهابها » أو كما قال : « ما أكثر العبر وأقل الاعتبار ! » . . . أو كما قال : « شاركوا الذى أقبل عليه الرزق فإنه أخلق للغنى وأجدر بإقبال الحظ عليه » . . . أو كما قال : « إذا هبت أمراً فقع فيه ، فإن شدة توقيه أعظم مما نخاف منه » أو كما قال : « لا يقيم أمر الله سبحانه إلا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع »

وله عدا هذه الحكم التي تلونت بألوان نفسه أو ألوان زمانه حكم كثيرة تصدر من كل قائل يقدر عليها ، وتنفذ إلى كل سامع يفطن لها كقوله : « كل معدود منقوض وكل منقوض متوقع آت » أو قوله : « إذا كثرت القدرة قلت الشهوة » . . . أو قوله : « أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه » . . . أو قوله : « من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ، ومعلم نفسه

ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم . . .

وله في المواقف المرتجلة كلمات هي أشبه الكلمات بأسلوب الحكمة السائرة ، فلما خرج وحده لبعض المهام التي تردد فيها أنصاه قالوا له يشيرون إلى أعدائه : يا أمير المؤمنين نحن نكفيكمهم . فقال : « ما تكفوني أنفسكم فكيف تكفوني غيركم ؟ إن كانت الرعايا قبلي لتشكو حيف رعاتها ، وإنني اليوم لأشكو حيف رعيتي ، كأنني المقود وهم القادة ، أو الموزوع وهم الوزعة »

ورثي محمداً بن أبي بكر حين بلغه مقتل على أيدي أصحاب معاوية فقال : « إن حزننا عليه قدر سرورهم به ، ألا لإنهم نقصوا بغيضاً ونقصنا حبيباً »

وقد أخطأ موير Moyer المؤرخ الإنجليزي حين قال إن علياً حكيماً كسليمان وهو مثله حكمته لغيره . . . يعني أنه ينصح الناس ولا ينتفع بالنصيحة . فإن موير أحجى أن يفرق بين عمل الإنسان بنصحه وبين انتفاعه بنصحه . ولا شك أن علياً كان من العاملين بما يقولون ومن المنتصحين بما ينصح به الناس . أما أنه لم ينتفع بحكمته فالطبيب لا يقدح في علمه أنه قد أعياه علاج نفسه بطبه ، فقد يكون الإخفاق من استعصاء الداء لا من صحة الدواء

ولا يفوتنا أن بعض هذه النصائح قد نسب إلى قالة من

الأوائل غير الإمام رضى الله عنه ، وهذا يستطرد بنا مرة أخرى إلى الصحيح والمنحول من كلام الإمام الذى جمعه الشريف الرضى فى « نهج البلاغة » وفرغ من جمعه بعد مقتله بزهاء أربعة قرون ، وهو بحث يخرج بنا من موضوع هذا الكتاب إلى دراسة أدبية ليست من أغراضنا الخاصة فى التعريف بعبقريّة الإمام . فحسبنا أن أسلوب الإمام معروف فى بعض ما ثبت له من رسائله وخطبه ، وأن طابع هذا الأسلوب شائع فى الكتاب لا تقدح فيه كلمة ظاهرة التلفيق هنا أو كلمة ظاهرة الإقحام هناك ، أو كلمات يقع فيها الالتباس لاختلاف الصناعة أو اختلاف التفكير . فنحن لا نخطئ أن نرى فى هذه الخطب والرسائل والأمثال وحدة تتصل حيناً وتنقطع حيناً كالوحدة التى نراها بغير انقطاع فى كتب الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد ، وهذه الوحدة وحدها مغنية لنا فى تبيان ثقافة الإمام ، أو تذوق أسلوبه الذى لا تخطئ فيه مرة جزالة البادية وصقل الحاضرة وحسن البداة وامتزاج الصناعة بالطبع الذى لا تكلف فيه

* * *

ولا يتم القول فى ثقافة الإمام على رضى الله عنه ما لم نتممه بالقول فى نصيبه من الثقافة العسكرية أو فن الحرب ، الذى هو مضماره الأول ومناطق شهرته التى تبرز فيها صفة الشجاعة قبل كل صفة ، وكفاءة المناضل قبل كل كفاءة

فجملة ما يقال في هذا الصدد أن فن الإمام العسكري هو فن البطل المغوار الذي يناضل الأفراد وينفع الجيش الذي هو فيه بقدوة الشجاعة وإذكاء الحماسة وتعزيز الثقة بين صفوفه ، وأنه يعرف كيف يكون الهجوم حيث يجب الهجوم وكيف يحتال على عدوه بما يخلع قلبه ويفت في عضده ، ومن حيله المشهورة في توهين عزم عدوه أنه أمر بعقر الحمل في الوقعة المعروفة باسمه ، لأنه كان علم القوم الذي يلتفون به ويثبتون بشوته وهذا كله فن البطل المغوار الذي يفرق العسكريون بينه وبين خطط القيادة وفنون التعبئة وتحريك الجيوش

ولم يرد لنا من أبناء الإمام في هذا الباب ما نحكم به على قيادته العسكرية بهذا الاعتبار
نعم إنه كان يقسم جيشه إلى يمينه وميسرة وقلب وطلية ومؤخرة وأشباه ذلك من التقسيمات التي جرى عليها في وقعة صفين على التخصيص

وكانت له وصاياه المحفوظة في تسيير الجيوش وتأديب الجند ومعاملتهم لسكان البلاد ، ومنها قوله : « إذا نزلتم بعدو أو نزل بكم فليكن معسكركم من قبل الأشراف وسفاح الجبال ، أو أثناء الأنهار ، كما يكون لكم رداء ودونكم رداء ، ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين ، واجعلوا لكم رقباء في صياصي الجبال ومناكب الهضاب ، لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة

أو أمن ، واعلموا أن مقدمة القوم عيونهم ، وعيون المقدمة طلائعهم ، وإياكم والتفرق فإذا نزلتم فأنزلوا جميعاً وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً ، وإذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كفة - أي محيطة بكم - ولا تذوقوا النوم إلا غراراً أو مضمضمة »

ومنها قوله : « ولا تسر أول الليل فإن الله جعله سكناً وقدره مقاماً لا ظعنًا » ومنها قوله للولاة : « إني سيرت جنوداً هي مارة بكم إن شاء الله ، وقد أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كف الأذى وصرف الشذى ، وأنا أبرأ إليكم وإلى ذمتكم من معرة الجيش إلا من جوعة المضطر لا يجد عنها مذنباً إلى شعبه ، فنكلوا من تناول منهم شيئاً ظلماً عن ظلمهم ، وكفوا أيدي سفهائكم عن مضارتهم والتعرض لهم . . . »

وهذه وما هو من قبيلها مناهذ موروثة أو أدب هو أقرب إلى نظام الإدارة منه إلى خطط التعبئة وقيادة الميدان

وخلاصة ذلك كله أن ثقافة الإمام هي ثقافة العلم المفرد والقيمة العالية بين الجماهير في كل مقام

وأما هي ثقافة الفارس المجاهد في سبيل الله ، يداول بين القلم والسيف ، ويتشابه في الجهاد بأسه وتقواه . لأنه بالبأس زاهد في الدنيا مقبل على الله ، وبالتقوى زاهد في الدنيا مقبل على الله

في بيته

خلاصة رأى الإمام في المرأة أنها « شركلها، وشر ما فيها أنه لا بد منها »

وكان يرى لها فضائل خاصة تليق بها غير الفضائل التي تليق بالرجل وتحمد منه ؛ « فخير خصال النساء شرار خصال الرجال : الزهو والجبن والبخل . فإذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها ، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها ، وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء يعرض لها »

والإمام صائر إلى رأيه هذا في المرأة من كلتا طريقيه ، وهما طريق الحكيم الذي ينظر إليها على سنة الحكمة القديمة ، وطريق العابد الذي ينظر إليها على سنة العبادة في جميع العصور ، ولكنه لا رأى الحكيم ولا حس العابد قد حجبه قط عن فطرته الغالبة عليه وهي فطرة الفارس المطبوع على آداب الفروسية ، ومنها التلطف بالمرأة والصفح عن عدوانها ، فما انتقم قط من امرأة لأنها أساءت إليه ، ولا غفل قط عن الوصية بها في موطن يستدعي هذه الوصية ، ومن أمثلة وصاياه في هذا المعنى خطبته بين جنوده قبل لقاء العدو بصفين حيث يقول . . . « لا تهيجوا النساء بأذى

وإن شتمن أعراضكم وسبن أمراءكم ، فلنهن ضعيفات القوى
والأنفس والعقول ، إن كنا لنؤمر بالكف عنهن ولنهن لمشركات ،
وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالفهر - أى الحجر -
أو الهراوة فيعير بها وعقبه من بعده . . . »

* * *

وقد كانت ميوله نحو المرأة قوية كما يظهر من غير حادث
واحد ، ومن ذلك صبية السبي التى استولى عليها وبني بها لساعتها
وجعلها قسمه من الخمس قبل تقسيمه ، فرأى بعض أصحابه فى
ذلك ما شكوه إلى النبي عليه السلام من أجله ، وربما كان
هذا سبب تحذيره منها فى الغزوات خيفة على الجيش من
شواغلها ، فكان يقول لسراياه وجيوشه إذا شيعها : « اعزبوا عن
النساء ما استطعتم » ويوصى فى أمثال هذه المواطن باجتنابها
إلا أنه كان يرى على ما يظهر أن امرأة تغنى عن سائر
النساء ، فلم يعرف له هوى لامرأة خاصة من نسائه غير الهوى
الذى اختص به السيدة فاطمة رضى الله عنها كرامة لمنزلتها عنده
ومنزلتها عند أبيها ، وهو غير الهوى الذى تبعته المرأة بمغريات
جنسها

كان جالساً فى أصحابه ففرت بهم امرأة جميلة فرماها القوم
بأبصارهم فقال رضى الله عنه : « إن أبصار هذه الفحول طوامح ،
وإن ذلك سبب هياجها ، فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه

قليلاً مس أهله ، فإنما هي امرأة كامرأة »
وعلى الجملة يمكن أن يقال إن آراء الإمام في المرأة هي
خلاصة الحكمة القديمة كلها في شأن النساء

فهن شرّ لا بد منه باتفاق آراء الأقدمين ، سواء منهم
حكماء الهند واليونان أو الحكماء الذين نظروا إلى المرأة بعين الدين
من أبناء إسرائيل وآباء الكنيسة المسيحية وأئمة الإسلام

لأنهم كانوا جميعاً يمزجونها بالشهوات التي تثيرها عامدة أو
غير عامدة ، ويلقون عليها تبعة الشرور التي تنجم عنها بمكيدها
أو على الرغم منها . ولم تتغير هذه النظرة بعض التغير إلا في
الأزمة الحديثة التي نظرت في استقلال التبعات على أساس
« الحرية الشخصية » . . . فحاسبت المرأة بما تجنيه وأوشكت
أن تبالغ في تبرئها من جنایاتها

فن السهو عن الحقيقة أن نتخذ آراء الأقدمين في المرأة
دليلاً على نصيبهم من الغبطة أو السكينة في حياتهم البيتية .
لأننا خلقناهم جميعاً من الأشقياء المعذبين في بيوتهم ،
وهو ما تأباه البداهة وتأباه أنباء التاريخ عن كثير من الأزواج
والزوجات الناهيات

وليس من اللازم في حياة الإمام خاصة أن يستمد آراءه في
المرأة من حياته البيتية ، فقد كانت تجاربه في الحياة العامة
مدداً لا ينفد لهذه الآراء التي شاعت بين الأقدمين حتى

أوشكت ألا تحتاج إلى تجربة مكررة ، وشاءت المقادير أن تنقضى حياة الإمام والمرأة يد في القضاء عليها ، فكانت حياته الغالية مهراً لقطام التي قال فيها ابن أبي مياس المرادى :

ولم أر مهراً ساقه ذو سباحة كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب على بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من على وإن غلا ولا فتك لإلا دون فتك ابن ملجم

والذى يجزم به مؤرخ الإمام أن حياته البيتية خلت من شكاة لم يألّفها الأزواج في زمانه ، وأنها كانت على أحسن ما وصفت به الحياة الزوجية بين أمثاله

عاش مع فاطمة رضى الله عنها لا يقرن بها زوجة أخرى حتى ماتت بعد موت النبي عليه السلام بستة أشهر . وهى رعاية لها ورعاية لمقام أبيها لا شك فيها . فقد كان النبي عليه السلام كما جاء فى الأثر يغار لبناته غير شديدة ، وروى عنه أنه قال وهو على المنبر مرة : « إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب ، فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، إلا أن يريد على بن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فلإنها بضعة منى يربىنى ما راها ويؤذنى ما آذاها »

وربما كان من وفائه لها غضبه لغضبها ، فأحجم عن مبايعة أبى بكر إلى ما بعد وفاتها على بعض الروايات ، وهجره

كما هجرته مدة حياتها . وقد ولدت له أشهر أبنائه وبناته الحسن والحسين ومحسن وأم كلثوم وزينب ، وماتت ولم تبلغ الثلاثين وتزوج بعدها تسع نساء رزق منهن أبناء وبنات يختلف في عددهم المؤرخون ، ويؤخذ في إحصائهم في « الرياض النضرة » للمحب الطبري أنه كان رضى الله عنه وافر الحظ من الذرية ، بنى منهم بعده كثيرون

وكان على ما يفهم من خلائقه ومن سيرته وأخباره أباً سمحاً يستريح الأبناء إلى عطفه ويحترون على مساجلته الرأى في أخطر ما ينوبه من الأحداث الجسام

لما توجه طلحة والزبير نحو العراق ومعهما السيدة عائشة رضى الله عنها جاءه ابنه الحسن بعد صلاة الصبح فقال له : قد أمرتك فعصيتنى فتقتل غداً بمعضية لا ناصر لك فيها . فسأله : وما الذى أمرتنى فعصيتك ؟ قال : أمرتك يوم أحيط بعمان رضى الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل واست بها ، ثم أمرتك يوم قتل ألا تباع حتى يأتبك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر فإنهم لم يقطعوا أمراً دونك فأبيت . ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس فى بيتك حتى يصطلحوا . فإن كان الفساد كان على يدى غيرك ، فعصيتنى فى ذلك كله !

فلم يأنف أن يساجله الرأى ليقنعه وجعل يقول له : « أى بنى ! أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعمان فوالله

لقد أحيط بنا كما أحيط به ، وأما قولك لا تباع حتى تأتي بيعة الأمصار فإن الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هذا الأمر ، وأما قولك حين خرج طلحة والزبير فإن ذلك كان وهنا على أهل الإسلام . . . وأما قولك : اجلس في بيتك فكيف لي بما قد لزمني ؟ ومن تريدني ؟ أتريد أن أكون مثل الضبع التي يحاط بها ويقال دباب دباب . ليست هنا حتى يحل عرقوبها ثم تخرج . وإذا لم أنظر فيما لزمني من الأمر ويعينني فمن ينظر فيه ؟ فكف عنك أي بني »

وهذه معاملة « أخوة » تستغرب في الأجيال الماضية التي كان للأبوة فيها على البنين سيادة تقرب من سيادة المولى على الرقيق ، ولا ينقصها أنه لطم الحسن يوماً لأنه ظن به تقصيراً في الدفاع عن عثمان ، فتلك سورة الغضب في موقف من أندر المواقف التي لا يقاس عليها في سائر الأحوال وكان رضى الله عنه يزهي به أن يحيط به أبنائه في مجافل الروع وهما هذ الزخوف ، فيخرج إليها وهم حافون به يمينه وشماله ، ومنهم من يحمل اللواء بين يديه ، وذلك زهو الشجاع الفخور بأشباله الشجعان

واشتهر بالعطف على صغارهم كما اشتهر بمودة كبارهم ، فكان أحب شيء إليه أن يداعبهم أو يرى من يداعبونهم ، وكانت له طفلة ذكية ولدتها له زوجة من بني كلب يخرج بها

إلى المسجد ويسره أن يسألها أصحابه : من أخوالك ؟ فتجيب :
وه . وه . محاكاة لعواء الكلاب

وكان يقول : « إن للوالد على الولد حقاً ، وإن للولد على
الوالد حقاً ، فحق الوالد على الولد أن يطيعه في كل شيء إلا في
معصية الله سبحانه ، وحق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن
أدبه ويعلمه القرآن »

ومن إحسان التسمية أنه هم بتسمية ابنه حرباً لأنه يرشحه
للجهاد وهو أشرف صناعاته ، لولا أن رسول الله سماه الحسن ،
وهو أحسن فجرى على هذا الاختيار في تسمية أخويه الحسين
والحسن . وأتم حق أبنائه في إحسان أسمائهم فاختار لهم أسماء
النبي وأسلافه من الخلفاء : أبي بكر وعمر وعثمان

* * *

أما معيشته في بيته بين زوجاته وأبنائه فمعيشة الزهد والكفاف ،
وأوجز ما يقال فيها أنه كان يتفق له أن يطحن لنفسه ، وأن
يأكل الخبز اليابس الذي يكسره على ركبته ، وأن يلبس الرداء
الذي يرد عنه فيه ، وأن أحداً من رعاياه لم يمت عن نصيب أقل
من النصيب الذي مات عنه وهو خليفة المسلمين

وكان الخليفة يوم كانت الخلافة تناقض ملك الدنيا
فكان بيته نقيض القصر الذي تعرض الدنيا المملوكة بين
أركانها وزواياها .

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة على مطابع دار المعارف بمصر

دارالمحارف بمصر

تقدم هذه المجموعة النفيسة من بعض مؤلفات الأستاذ عباس محمود العقاد :

- الله
- ٣٠٠ صفحة . قطع كبير .
- ٧٠ قرشاً
- ١٢٠ صفحة . قطع صغير .
- ٢٠ قرشاً
- أشات مجتمعات في اللغة والأدب
- ١٥٦ صفحة . قطع متوسط .
- ٢٥ قرشاً
- الديمقراطية في الإسلام
- ١٨٠ صفحة . قطع صغير .
- ٣٠ قرشاً
- يوميات (أول)
- ٤٤٠ صفحة . قطع كبير .
- ١٠٠ قرش
- أثر العرب في الحضارة الأوروبية
- ١٨٠ صفحة . قطع صغير .
- ٢٥ قرشاً
- ابن رشد
- ٢٠٨ صفحات . قطع صغير .
- ٢٥ قرشاً
- ١٢٠ صفحة . قطع متوسط .
- ٢٠ قرشاً

وفي سلسلة

اقرأ

- شاعر الغزل : عمر بن أبي ربيعة
- برنارد شو
- جميل بثينة
- عبقرية الإمام
- سارة

(ثمن النسخة ٥ قروش)

بأسلوب اليوم وتفكير الغد

- قروش ج. م. ع. ٢٠٠
- ١٠٠ ملجم في ليبيا
- ٦٠ ق. ل
- ٧٥ فلساً في العراق والأردن ١٥٠ فرن
- ٧٥ ق. س
- ١٢٠ فلساً في الكويت ١ ربا
- ٦٠ مليماً في السودان
- ١٢٥ مليماً في تونس

Bibliotheca Alexandrina



0689224